



منظمة الاعلام الاسلامي  
قسم العلاقات الدولية

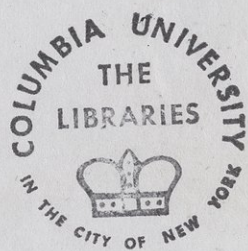


# الاخلاق

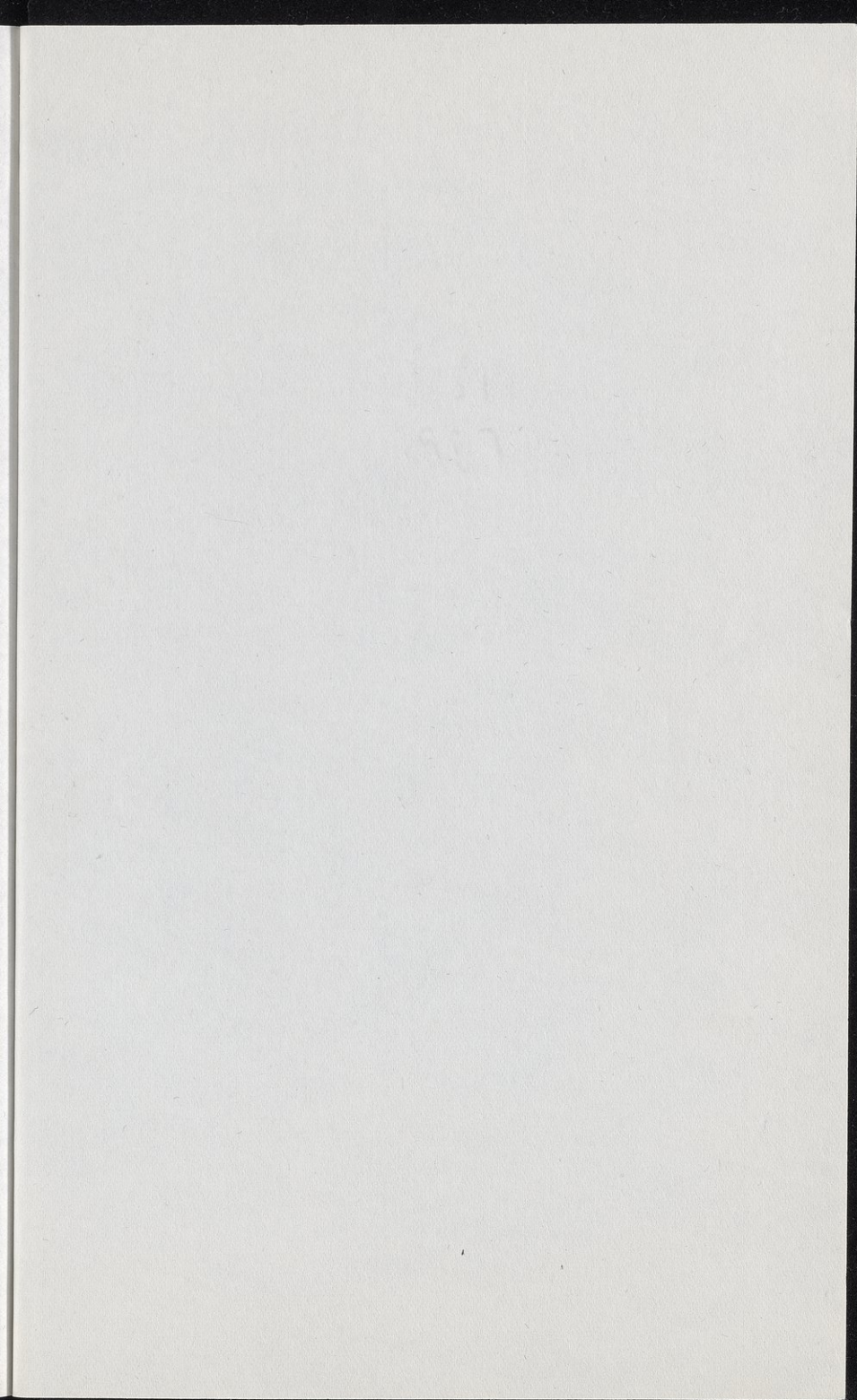
نداء الامم الصادق

ButlStax

BP  
193.16  
.A3  
Z39  
1982



13



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ALMAS BOOK HOUSE

INVERARITY ROAD,

POST BOX No 10471

SADDAR, KARACHI-8

مكتبة جامعة القاهرة  
القاهرة

UNIVERSITY OF CAIRO LIBRARY

1950

# الاخلاق

عند الامام الصادق

العلامة

محمد حسين زين الدين

Gen Lib  
BP  
193.16  
.A3  
739  
1982



الكتاب: الاخلاق عند الامام الصادق  
المؤلف: العلامة محمد امين زين الدين  
الناشر: منظمة الاعلام الاسلامي - قسم العلاقات الدولية  
المطبعة: سپهر  
التاريخ: جمادى الاول؛ ١٤٠٣ هـ  
عدد النسخ المطبوعة: ١٠,٠٠٠ نسخة



## الفهرست

الموضوع:	الصفحة
مقدمة الناشر	٧
توطئة	١٤-٨
١ - الخلق	٢٢-١٥
٢ - السعادة والخير	٣٢-٢٣
٣ - الاعتدال والانحراف	٤٠-٣٣
٤ - الانسانية الكاملة	٥٠-٤١
٥ - الضمير	٥٩-٥١
٦ - الفضائل الفرعية	١١٣-٦١
* الحكمة	٦٤
* العدل	٦٩
* العدل الفردي	٧١
* العدل الاجتماعي	٧٥
* العفة	٧٩
* القناعة والاقتصاد	٨٥
* الشجاعة	٨٩
* الشجاعة البدنية	٩٢
* الشجاعة الأدبية	٩٣
* عزة النفس وعلو الهمة	٩٥
* الكبرياء والتواضع	٩٩
* الصدق والكذب	١٠٢

- \* ١ - الصدق في القول ..... ١٠٤
- \* ٢ - الصدق في العزيمة ..... ١٠٥
- \* ٣ - الاخلاص ..... ١٠٥
- \* ٤ - الصدق في العمل ..... ١٠٧
- \* ٥ - الوفاء ..... ١٠٧
- \* ٦ - الصدق في مقامات الدين ..... ١٠٨
- الحب والصدقة ..... ١٠٩
- ٧ - ميزان الخُلُق الصحيح ..... ١١٥-١٢٠
- ٨ - أصول العلاج عند الخلقين ..... ١٢١-١٢٩
- المصادر ..... ١٣٠

## مقدمة الناشر

يسر منظمة الاعلام الاسلامي ان تقوم بتقديم هذا الكتاب الصغير الحجم والكبير الفائدة وهو يتناول موضوعاً هاماً ركزت عليه مدرسة الامام الصادق (عليه السلام) ايما تركيز، وجعلته معياراً للايمان وهو موضوع (الاخلاق الحميدة).

وقد قام ببحث هذا الموضوع استاذنا الجليل العلامة زين الدين . وهو من تأصلت فيه المناقبية الاسلامية وربى عليها جيلاً من الواعين . فالى مطالعة الكتاب بدقة وعمق ندعو الاخوة القراء الاعزة .

قسم العلاقات الدولية  
منظمة الاعلام الاسلامي

توطئة :

(١)

للبيان حق الايضاح والتصوير، وللفكر سلطة النقد والتحليل، و  
للحق فوق هذا وذاك حكومة عادلة تنير الهدى للبصير، وترغم العادي بالحجة، و  
الكاتب مدين للحق في تفكيره، قبل أن يكون مديناً في تصويره.  
للكتاب ان يتفنن في حديثه ما يشاء له الذوق، وأن يتعمق في بحثه  
ما تسمح به قوة النظر، ولكن عليه قبل ذلك أن يتخذ من الحق دليلاً، ومن  
العلم الصحيح مرشداً، عندما يريد ان يعرض على قرائه عظيماً من عطاء  
الانسانية، ومعجزة من معجزات القرون، ولا سيما اذا كان هذا العظيم من  
أمثال جعفر بن محمد الصادق، مثال العقل السامي، والانسانية الكاملة.

ستعترض الباحث في طريقه اسرار، وستقف أمامه شؤون وألغاز،  
يقف دون حلها وقفة الحائر ولعله يرجع عنها رجعة الخاسر، إلا أن يسترشد  
بهدي العلم الصحيح.

أقف عند ملتقى الخطوط من عبقرية الامام جعفر بن محمد فتملكني  
دهشة لم أكن أعهد لها لنفسى، ويكاد اليراع ان يكبو من يدي، وتموت  
الكلمات على شفتي. لم يعودني عليه البيان من قبل، ولم يخني في مثله  
التفكير.

تلك هي مزالق الفكر البشري المحدود اذا اراد ان يسمو الى آفاق غير محدودة، و حيرة المصور حين يلتقي باضواء غير متناهية.

بماذا يحيط الفكر المحدود من هذه الآفاق ليخصه بالتحليل، وماذا يعين المصور من هذه الاضواء المتشابكة ليفرده بالتصوير، أي النواحي من الامام جعفر بن محمد أقدمها للقراء، و أية خاصة منه أتناولها بالبحث، و كل ناحية منه حرية بالبحث و كل خاصة منه جديرة بالتحليل، كل نواحي جعفر بن محمد علم، و كل خواصه إعجاز..

و بعد أمر وأمر اخترت علم الاخلاق موضوعاً لحديثي عن الامام الصادق (ع) و ليس عليّ أن يرتضي جميع القراء مني هذا الاختيار، مادمت حرّاً في الارادة و كانوا احراراً مثلي، و مادام علم الاخلاق من النفائس النادرة في ميراث الامام، و لكل ارادته و اختياره.

الاخلاق: هو العلم الذي يبعث الكمال في النفس البشرية، وينتمي القوة والاستقلال في العقل البشري، و هو العلم الذي يساير الانسانية في اتجاهاتها، و يوجهها عند حيرتها، و يأخذ بيد العقل عند اضطرابه، و يمهده بالقوة عند ضعفه، و علم الاخلاق هو الرسالة العامة التي يجب على كل حي مدرك ان يبلغها الى كل حي مدرك، و هو الأمانة الكبيرة التي يجب على كل كائن عاقل ان يؤديها الى كل كائن عاقل.

لهذا ولأمثاله اخترت علم الأخلاق موضوعاً لحديثي عن الامام الصادق (ع) و ان لم يكن أجلّ مميزات الامام ولا ابرز خواصه، على أن للامام عناية خاصة بعلم الأخلاق تكفي الباحث حجة على هذا الاختيار، و من أثر هذه العناية أن طابع علم الأخلاق يكاد يظهر على كل كلمة نقلت عن الامام و على كل أثر نسب اليه.

لم أقصد في بحثي هذا ان أتحدث عن الوجهة الخلقية في نفس الامام الصادق (ع) فان هذه الوجهة نفسية تهتم الباحث عن عظمة الامام في

شخصيته، أما الذي يبحث عن عظمة الامام في علمه فعليه أن يتحدث عن علم الأخلاق عنده، وان كانت الوجهة الثانية تكشف عن الأولى في الأكثر.

## (٢)

لم يعتمد الامام جعفر بن محمد في أخلاقه على نظرية استفادها من فيلسوف، ولا قاعدة أخذها من حكيم، ولكنه استفادها من ينبوع الوحي و استفادها من هدي القرآن، نعم انه لم ينتسب الى مدارس الفلسفة في أئتنا، ولم يخضع لبيوت الحكمة في الهند، ولكن الفلسفة بعض ما تخرج فيه من جامعة القرآن، والحكمة بعض الفروع التي تلقاها في مدرسة أبيه محمد، وإن فتى نمت شبيبته في بيت محمد، و كملت نفسيته بارشاد محمد، و امتزجت بروحه روحانية كتاب محمد جدير أن يكون غنياً عن فلسفة إفلاطون و حكمة أرسطو و المثالية و معتصرات العقول و نسائج الأفكار.

و لعل أثر هذه التربية يظهر جلياً في أحاديث الامام (ع) و أحاديث الأئمة من آباءه و أبناءه، فان الباحث قد يجد الأثر الواحد مروياً عن أكثر من إمام واحد و إذا استقصى في بحثه وجد الحديث بلفظه و معناه مروياً عن جدهم الاكبر (ص) فنه يقتبسون، و اليه ينتهون، كالاشعة من النور، و كالثمرة من الشجرة.

## (٣)

الأخلاق إحدى الجهات الانسانية التي عني بها دين الاسلام، و اهتم بها اهتماماً كبيراً، و الذي يستقصي تعاليم الكتاب و إرشادات السنة يعلم مقدار هذا الاهتمام، و مبلغ هذه العناية، و هذه الظاهرة من الدين الاسلامي احدي مميزاته عن سائر الأديان، و احدي مؤهلاته للخلود.

وهي جارية على ما تفرضه جامعية الدين، وجفاء اخلاق المتدينين، يوم غرس بذرته، و اذا كان شذوذ الاخلاق ناتجا عن تطرف في الغريزة أو إسفاف في العادة، او قصور في التربية، و اذا كانت أمراض الروح أشد فتكاً في معنويات الأمة، وأعظم أثراً في إبعادها عن الخير و السعادة، فجدير بالدين الجامع، و جدير بالمصلح المهذب أن يتكفل إتمام النقص في الأخلاق، و يتبين مواضع الخلل في النفس، و يعالج الخطر في الغريزة الموبوءة ليُكوّن من الفرد عضواً صالحاً لمكانته من الأمة، و يجعل من الأمة مجتمعاً قابلاً للعلم في سبيل الخير.

الاسلام دين فردي اجتماعي و هو في اجتماعيته فردي أيضاً، ينظر الاسلام في سعادة الفرد كما ينظر في سعادة الأمة، و يسعى لتهديب الشخص كما يسعى لتنظيم المجتمع، و اذا كان صلاح الأمة مشروطاً بصلاح أفرادها كان اهتمام الدين بسعادة الفرد من ناحيتين:

تهمه سعادة الفرد لأنه ممن يجب إيصاله إلى الكمال.

و تهمه سعادة الفرد لانها شرط في سعادة الأمة. و كلتا هاتين الغايتين يدعوا اليهما الدين الجامع. و اذن فلا بد للاسلام أن يكون دين اخلاق، و لا بد لقادة الدعوة فيه من بث روح الأخلاق، و الامام جعفر بن محمد احد اولئك القادة. و بعض حملة ذلك المصباح.

كلنا نعلم أن الفلسفة الخلقية جزء من التراث القديم، بحث عنها الانسان حين بحث عن أحوال الوجود، و حين علم أن النفس البشرية من أهم أفراد هذا الوجود، و أن أخلاق هذه النفس من أبرز نواحيها، و من أظهر خواصها، و قد استنفد هذا البحث كثيراً من جهده، و طويلا من زمانه، حتى أتته النتائج منقادة كما يريد.

و لكن الذي نلاحظه أن العرب في أيامها الاولى لم تكن تسمع عن هذه الفلسفة شيئاً، و لم تلمح منها إلا ظلالاً خفيفة أدركتها بغرائرها... نطق

بها حكماؤها و نظمها شعراؤها، وان الدين الاسلامي الذي نشأ بين هؤلاء العرب و الذي صدع بتعاليمه محمد العربي الأمي قد تعرض لعلم الاخلاق فيما تعرض له من النواحي، فأسس له نظاماً وقواعد تتمشى مع أدق الموازين في التطبيق، وأشدها إحكاماً في القياس، واكثرها انسجاماً مع الزمان المختلف و البيئات المختلفة.

نعم تعرض الاسلام لعلم الأخلاق بأساليب وجد العربي الامي فيها ما ادركه بالفطرة، وقرأ فيها الفيلسوف ما اثبته بالبرهان وأكبر الجميع هذا الشرع الجديد الذي يعضد البرهان بالفطرة ويركز الفطرة على البرهان، و يصلهما جميعاً بوحى السماء ليضمن لها العصمة في الانتاج و الغزارة في المادة. ولعل الوقت يتسع لنا بعد هذا فنبحث الموضوع كما يقتضي العلم أن يبحث، و لعلنا نحاسب الاستاذ أحمد أمين عن نظرتة الى الاخلاق في الاسلام، فان علاقتها باللفظ أشد من علاقتها بالمعنى والاستاذ حين يتسرع بارسالها يشبه البسطاء الذين يكتفون في معرفة الشيء بظواهره الشكلية.

## (٤)

علم الأخلاق حق انساني مشاع، لا يختص بطائفة من البشر دون طائفة، ولا يحتكره فريق دون فريق، و اذا كانت الخاصة هي التي اسست قواعده و شرعت نظامه، فان العامة تشابهها في الحاجة، و تشترك معها في الغاية ما دامت للجميع ملكات يجب تعاهدها بالاصلاح، و غرائز يلزم اخضاعها للتوازن، وما دامت لهؤلاء و هؤلاء اعمال يحكم عليها بالخير او الشر. و لجميعهم حق في السعادة و نصيب من الخير الأعلى.

ولست اذهب بعيداً حين اقول: حاجة العامة الى علم الاخلاق اكثر فهو بهم ألصق، لان الامراض الخلقية في العامة من الناس اكثر شيوعاً، و اعظم تفشياً، و حاجة المريض الى الطب اشد من حاجة الطبيب.



علم الامام الصادق بذلك ، وعلم ان لهؤلاء العامة افهاماً لا تقبل المصطلحات الغريبة ، ولا تستسيغ العبارات البعيدة . فكان لزاماً عليه ان يوضحها لهم على حسب ما يدركون ، و ان يترجمها لهم بما يفهمون ، فكان من ابرع من اوضح ، وادق من ترجم ، على ان اكثر ما يهتم به المثاليون من قادة الدين هي ناحية التطبيق من علم الأخلاق ، لأنها اكثر دخلا في التوجيه الخلقى الذي يهتم به الدين . ولأن الوحي قد كفاهم مؤونة الاستقراء ، و اراحهم من عناء البحث و التمحيص .

## (٥)

لعلماء الحديث من شيعة اهل البيت (ع) حرص شديد على تدوين ما لأئمتهم من اقوال وارشادات ، فهم يجمعون منها كل شاردة و واردة . ما تعلق منها بالفقه الجعفري ، و ما تعلق منها بغيره . فكان من نتائج هذا الحرص ان دونت جوامع و جمعت دواوين ، و كانت اخلاقيات الامام الصادق (ع) بعض ما دون .

تميزت الشيعة بذلك لالأن نصائح الائمة كانت خاصة بهم ، بل لانهم اكثر اهتماماً بأثار أئمتهم ، و اذا استثنينا هذه الوجهة فلم تكن الشيعة الا بعض من تجب له النصيحة في رأي الامام (ع) فان حبه للخير و الاصلاح يأبى له ان يمنع النصيحة عن أي احد ينتفع بها .

لم يبخل الامام بنصيحة على مسلم يوماً ، و تعاليمه الخلقية لسفيان بن سعيد الثوري و زملائه الآخرين من رؤساء المذاهب بينة و اوضحه على هذه الدعوى ، و هو القائل : « خير الناس من انتفع به الناس » و الراوي عن ابيه النبي (ص) : « من لم يهتم بامور المسلمين فليس منهم » و كل ما تتميز به الشيعة من ذلك انهم لتعاليمه اسمع ، و لأقواله احفظ ، و ان الامام هو

المسؤول عن تهذيبهم ، لأنه عميد مذهبهم .

خلف لنا علم الاثر ثروة كبيرة من اخلاقيات الامام الصادق (ع) يجدها الباحث منتشرة في فصول كتب الحديث ، ولا سيما الاخلاقية منها ، و لكنه لم يحفظ لنا كتاباً يختص بأخلاق الامام ، اذا استثنينا (مصباح الشريعة) الكتاب الذي اثار بعض علماء الحديث عاصفة الريب في نسبه الى الامام الصادق ، و كان لهم في امره شكوك و شكوك .

نعم ان علم الحديث لم يحفظ لنا كتاباً يختص بأخلاق الامام الصادق (ع) ولكنه حفظ انا بين طياته درراً من اخلاقه ، و جواهر من عرفانه ، لو اعتنى الباحثون بجمعها لألفوا مجموعة رائعة في العلم

اما كتاب (مصباح الشريعة) فان نسبه الى الامام جعفر بن محمد اخذت دوراً مهماً كانت فيه حديث اهل النقد من علماء الحديث ، وقد انقسموا فيه الى شطرين ، و كل ما اتى به النافون تشكيك و تردد ، ولا يهمننا ان نتعرض

لاثبات هذه النسبة او نفيها ، ولا ان نستعرض ادلة المثبتين و شكوك الناقلين ، فان لهذا النوع من البحث كتباً اخرى ، على ان احاديث الاخلاق و السنن لا تحتاج الى عناية كبيرة في التوثيق ، و قد اعتمد على كتاب (مصباح الشريعة) كثير من علماء الحديث و صححه جماعة من الأثبات ، و هذا كاف في صحة الاعتماد عليه .

سماحاً ايها القارئ ، الكريم : لقد اطلنا بك الوقوف على المنعرجات ، و تشعبت بنا الطرق عن الغاية ، و لا بد للكلام عن هذه النواحي ان يطول ، فلنسر بعد هذا الى غايتنا و كان الله معنا .

محمد أمين زين الدين

(١)

# الخلق

«إن الله ارتضى لكم الاسلام ديناً»  
«فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق»  
الامام الصادق (ع)

(1)

فقط

مجلس شورای عالی  
وزارت معارف و اوقاف و صنایع مستظرفه  
تاسیس ۱۳۰۲

## (١) الخلق

كلمة الخُلُق تستعمل في اللغة بمعنى السجية، وبمعنى الطبع، و العادة، و الدين، و المروءة. و قد ذكر اللغويون لكل واحد من هذه المعاني شواهد من اقوال العرب و امثالها.

و بين هذه المعاني صلة قريبة تكاد تجمعها في اطار واحد. و لعل معنى الكلمة في اللغة واحد و هذه المعاني افياءه و ظلاله، و لعل هذا المعنى الواحد في اللغة هو الذي يعرفه الخُلُقيون من هذه الكلمة ايضاً، و ان كانت النصوص اللغوية قاصرة عن اثبات ذلك.

و الخلقيون يعرفون من معنى هذه الكلمة انها ملكة من ملكات النفس، و يقولون ان اظهر خاصية تتميز بها هذه الملكة هي صدور الافعال عن الانسان من دون إمعان فكر او اعمال روية.

و يقول بعض الخلقيين (الخلق صورة الارادة) (١) و لعل هذا القائل

يحاول ان يبدل البيان بيان آخر اكثر منه وضوحاً، و اوفى شرحاً، إلا انه لم يفلح في هذه المحاولة فاضطره الغموض الى شرح طويل، ابعده فيه المعرف عن التعريف، و اذا كان يريد من لفظ الصورة: الملكة الكامنة في النفس، و المسخرة للارادة حين العمل لم يكن بين التعريفين مخالفة.

لكل انسان في نفسه صفات كثيرة العدد، متباعدة الآثار؛ كالوفاء، و الصدق، و السخاء، و الشجاعة. و هذه الصفات مصدر لاكثر اعماله، و الخلق من هذه الصفات النفسية هو ما تركز في النفس، و انطبعت به انطباعاً كاملاً.

و العلماء الخلقيون يبحثون في الدرجة الاولى عن هذه الملكات النفسانية من حيث انها تتصف بالاعتدال و الانحراف و تقبل التحوير و التهذيب، اما الاعمال التي يصدرها الانسان باختياره، و التي يحكم عليها العقلاء بالخير او بالشرف فيسميها الخلقون سلوكاً، و يبحثون فيها بحثاً ثانوياً، من حيث انها مظهر خارجي للخلق الكامن، ولان العمل من ناحية اخرى هو المفتاح لتهذيب الصفة النفسية اذا كانت منحرفة، و لانحرافها اذا كانت مستقيمة.

و لذلك فلا يمكننا ان نعتبر العمل الاختياري موضوعاً لعلم الاخلاق، و ان اصر على هذا الرأي الاستاذ احمد امين (\*) و اطال في شرحه وايضاحه، لا يمكننا ذلك لان هذا الرأي لا يتفق مع اصول العلم.

موضوع هذا العلم هو (الخلق) و الخلق صفة نفسية و ليست عملاً من الاعمال، و ان كان العمل الاختياري مظهرها الخارجي، و الاستاذ يقيم على هذا التأسيس أشياء أخرى قد نعرض لبعضها فيما يأتي.

(\*) و لذلك فهو يفسر نظرة الاسلام الى الاخلاق تفسيراً يتصل بالفقه الاسلامي اكثر من اتصاله بعلم الاخلاق، و يعرف الخلق بانه عادة الارادة؛ و ينقد الفلسفة القديمة التي تقول: يولد الطفل خلواً من الاخلاق، ثم يكتسب اخلاقه بالتربية. و يرد عليها بأعمال الطفل حين يولد، و يقول اشياء اخرى تتصل بهذا الرأي.

والخلق لا يمكن أن يكون وليد مصادفة، و نتيجة اتفاق، لأن الأخلاق ملكات، ولا بد للملكات من أسس كما لا بد للبناء من قاعدة، و أسس الخلق: الغريزة، و الوراثة، و البيئة، و التربية، و العادة. و الفلاسفة القدماء حين يقولون: «يولد الانسان صحيفة بيضاء يرسم فيها المرء ما يشاء» يريدون بذلك أن نفس الطفل مرنة الغرائز، سريعة التأثير و الانطباع بإشارات المرء و إرشاداته، لأن غرائز الطفل لا تزال بعد في جدتها، لم تسير الى وجهة خاصة، و لم تكسبه خلقاً معيناً، فهي قابلة للتوجيه، و مستعدة للتهذيب، و اذن فهم يريدون من بياض صحيفة الطفل خلو نفسه من الملكات الخلقية، لا عريها عن الغرائز و الطباع الموروثة، و المرء يكسبها أخلاقاً لا ينشئ فيها غرائز، و هم يقولون هذا في الرد على من يقول: الانسان خير بالطبع، و من يقول: هو شرير بالجملة.

ولنترك الاستاذ أحمد أمين يفسر قولهم هذا بما يشاء ليخطئهم في الرأي، و ليدل على خطأهم بأعمال الغريزة في الانسان حين يولد، لقد فسر على ما انتهى، ثم أشكل على ما فسر.

أما قانون الوراثة الذي أشار اليه الاستاذ هنا، و الذي بنى عليه هدم هذه النظرية فلا يدل على أن الطفل يرث من أسلافه أخلاقاً، و كل ما يدل عليه أن الطفل يرث منهم مبادئ اخلاق، و استعداداً في غرائز، و الفلسفة القديمة لا تنكر ذلك، و الشرع و الأدب العربي القديم يعترفان بذلك أيضاً. و تأثير هذه الاسس في تكوين الخلق الانساني ليس على نهج واحد، فان الغرائز تظهر على أشكال ميول و رغبات، و الوراثة تحوير في استعداد الغريزة، و أثر التربية أو البيئة توجيه النفس عند ارادة العمل، و أثر العادة تثبيت الصفة الحادثة و احوالها خلقاً، و اذن فبإدخال الخلق تنحصر في صنفين:

(١) اختياري يفتقر وجوده الى ارادة الانسان و اختياره، و من هذا

القسم: العادة؛ وبعض مفردات التربية، والبيئة، كالمدرسة والاصدقاء.  
 (٢) اضطراري لاحكومة لارادة الانسان على وجوده وان كانت  
 لها حكومة على تأثيره، ومن هذا القسم: الغريزة. والوراثة، والبعض الآخر  
 من مفردات البيئة والتربية.

والامام الصادق (ع) يصرح بهذا التقسيم فيقول: (إن الخلق منحة  
 يمنحها الله خلقه فنه سجية، ومنه نية) ويفسر لفظ السجية بالجلبة في بقية  
 الحديث فيقول: (صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره؛ وصاحب النية  
 يصبر على الطاعة تصبراً فهو افضلها)<sup>١</sup> او يقابل السجية بالنية وهي الارادة.  
 ومعنى الحديث ان الخلق الحسن منه ماتسوق اليه الجبله، وتبعث  
 اليه الفطرة، وهذا القسم لا يجد الانسان صعوبة في تكوينه، ولا في  
 الاستمرار عليه، ومنه ما يكون على خلاف ميول الانسان ورغباته؛ وهذا  
 القسم هو الذي يحتاج الى مجاهدة النفس في تكوينه، و الى مصابرتها في  
 الاستمرار عليه، فهو أفضل القسمين؛ وارجحهما في الميزان.

و اذا وجهنا نظرة فاحصة نحو هذه الاسس رأينا للعادة خاصة لا  
 تتمتع اخواتها الاخرى بنظيرها، للعادة ان تستقل في تكوين اي خلق من  
 اخلاق الانسان، وليس للغريزة ولا للاسس الاخرى مثل هذا النفوذ و  
 الاستقلال، لأن الخلق ملكة، و الملكة لا تتكون للنفس إلا بتكرار العمل<sup>٢</sup>  
 ونتيجة هذا ان جميع الاسس الاخرى محتاجة الى انضمام العادة اليها في  
 تكوين الخلق النفسى، وان للعادة سلطاناً على تغيير كل خلق يتصف به

(١) الكافي الحديث ١١ باب حسن الخلق.

(٢) العادة مرونة تحصل للنفس من تكرار العمل حتى تألفه ويسهل عليها ان تأتي به من غير امعان  
 ففكر، ويشترط الاستاذ احمد امين في تكوين العادة وجود ميل نفساني نحو العمل ينضم الى تكراره، ويقول:  
 هما امران لا يبد منها في تكون العادة، ولا يكفي احدهما عن الآخر، ولم يظهر لنا وجه مقبول لهذا الشرط  
 الذي يشترطه الاستاذ.



الانسان، وان للعقل سيطرة على تهذيب الغرائز، لان له سلطاناً على تحوير العادات.

والامام الصادق (ع) يقرر هذه النتيجة فيقول: (ما ضعف بدن عما قويت عليه النية) <sup>١</sup> تهذيب الغرائز النفسية جهاد، وفي الخروج على مؤثرات البيئة و الوراثة عناء وصعوبة، ولكن جميع ذلك سهل على الارادة القوية، ولا خير في الرجل اذا لم يكن قوي الارادة.

ويقول ايضاً: (ان الله ارتضى لكم الاسلام ديناً فاحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق) <sup>٢</sup> الاسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده اكراماً لهم و امتناناً عليهم، به ينجحون في الدنيا، و باتباعه يفلحون في الآخرة، فيجب عليهم ان يجاهدوا الخلق السيء من انفسهم، لان الاقامة على الأخلاق السيئة اساءة لا تلتئم مع قدسيّة الاسلام، هكذا يقول الامام الصادق في حديثه هذا، و اذن فهو يرى ان تهذيب الأخلاق ممكن و ان كان جهاداً، و على هذا النهج و بمثل هذه النعمة يقول: (من اساء خلقه عذب نفسه) <sup>٣</sup>.

سوء الخلق عذاب يختاره الانسان لنفسه اذا اساء خلقه، وهو جحيم يجب على العاقل ان يتخلص منه، هو عذاب لانه ضعة في النفس و خمود في العقل، و هو عذاب لانه نقص في الانسانية، و شذوذ عن التوازن، و هو عذاب يختاره الانسان لنفسه، لانه هو الذي يسعى في تكوينه، و الامام بقوله هذا يحاول أن يجعل من ارادة الانسان سلاحاً ماضياً لكفاح الرذائل و محاربة النقائص.

و من الخلقين من يرى ان الاخلاق انطباعات نفسية يستحيل عليها التحوير و التهذيب، فليس للعقل عليها اية حكومة، و ليس للارادة على تغييرها اية قدرة، و هذه نظرية مجحفة تهدم بناء السياسات و تلغى فائدة

(١) امالي الصدوق ص ١٩٨ (٢) الكافي الحديث ٤ باب المكارم (٣) امالي الصدوق ص ١٢٤.

التشريع ، و تبطل نظم الأخلاق وهذه النتائج وحدها كافية في ابطال هذا القول .

أما قول الامام الصادق في حديثه المتقدم: (صاحب السجية هو محبوب لا يستطيع غيره) فلا يعني به أن من الاخلاق ما يستحيل عليه التهذيب؛ وإنما يعني أن تكوين الخلق بسبب العادة فقط أكثر صعوبة على الانسان مما إذا تساعدت على انشائه الغريزة و العادة، فان الارادة إذا صادفت ميلا غريزياً أسرع الى العمل، وبتكرار العمل تحصل العادة، و يتركز الخلق، و هما عند المكافحة و التهذيب على العكس من ذلك، لأن تغيير مجرى العادة أسهل بكثير من تعديل مجرى الغريزة.

و طالما سماه الصادقون من أهل البيت (ع) جهاداً و ما أحقه بهذه التسمية، لأن الثبات فيه يستدعي حزم المجاهد و للمناضل فيه أجر المجاهد، و قد قال أبوهم النبي (ص) لبعض سراياه عند رجوعها من الحرب، (مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر و بقي عليهم الجهاد الاكبر).<sup>١</sup> ثم فسر لهم الجهاد الاكبر الذي بقي عليهم بجهاد النفس على أخلاقها، و قال الامام الصادق (ع): (و اجعل نفسك عدواً تجاهه)<sup>٢</sup> و هو يريد بالنفس هنا ملكاتها الوضيعة.

و من أحق بالمجاهدة من هذا العدو المخادع، و الحنصم الألد، الذي يحمل سلاح الغدر تحت ستار النصيحة، و يمزج السم القاتل بجلاوة الأمل، هي عدو داخلي يجب اخضاعه بقوة العدل لحكومة العقل .

(١) الوسائل كتاب الجهاد الحديث الأول من باب وجوب جهاد النفس .

(٢) أصول الكافي الحديث ٧ من باب نوادر الاستلراج .

(٢)

# السعادة والخير

«السعادة سبب خير يتمسك به»

«السعيد فيجره الى النجاة»

الامام الصادق (ع)

(٧)

مجلس القضاة

الجلسة العادية  
التي تعقد في  
الغرفة رقم ١٠

## (٢) السعادة والخير

يستطيع الكائن الحي<sup>١</sup> أن يصدر من الاعمال ما يعاكس بها نظام الجذب العام، والجماد والنبات لا يقدران على ذلك، يستطيع الحيوان أن يتسلق الجبل مثلاً، وأن يتنقل حيث تقوده الرغبات وتسوقه المطامع. وماء البحر لا يستطيع ذلك من نفسه، ولا يفعله إلا حين يكون مقسوراً، وهذا يدلنا على أن للكائن الحي قوة نفسية تميزه بهذه الخاصة عن جميع ما يشاركه في الوجود، وهذه القوة النفسية هي الإرادة، وقديماً عرف المنطقيون الكائن الحي بأنه «المتحرك بالإرادة».

وهذه القوة النفسية «الإرادة» واحدة في العدد، ونسبتها إلى جميع الاعمال التي يصدرها الحيوان نسبة متساوية، ولذلك فكان من المستحيل على الإرادة أن تتوجه إلى نقطة معينة من الاعمال إذا لم تعينها نفس ذلك

---

(١) نريد بالكائن الحي هنا الحيوان في عرف المنطقيين القدماء فلا يعم الأحياء السفلى كالمكروب والنبات، وإن أثبت العلم الحديث أنها كائنات حية.

الموجود الحي، ونتيجة جميع ما تقدم أن للحيوان ارادة تصدر عنها أعماله و تصرفاته، و أن لهذه الارادة أغراضاً توجهها الى ما تعمل و الى ما تترك، و بهذا يشترك الانسان مع جميع أفراد الحيوان.

وينفرد الانسان عنها بأن أغراضه مسبقة بالتعقل و التدبر، فهو الذي يستطيع أن يعلل و يتفكر، و يقارن بين الأشياء و أضدادها، و يقيس المستقبل بالحاضر فيختار الجيد من الأمور، و المثل من الغايات، أما الحيوان فيسوقه الوهم الى اتباع الغريزة فيما تأمر و ما تحذر، و ليس له وراء الغريزة و الوهم قائد و لا سائق.

توجه الطبيعة غرائز الحيوان و ميوله، فتتبعها ارادته تنفذ ما تأمر، و ليس له اختيار كامل يمكنه أن يستقل به عن أحكام الطبيعة و ميول الغريزة، و الانسان وحده هو الذي يستطيع ذلك، فهو الذي يصدر أحكامه على الغريزة، و يغير أحكام الطبيعة، و يصنع العجائب بارادته و اختياره.

و للانسان نزعة نفسية ثابتة، و هي حب الجودة، فهو يتكلف الجيد من الاعمال و يتحرى الجيد من الغايات، و هو يحاول أن يكون سابقاً في أعماله، و أن يكون جميلاً في كل مظهر من مظاهره، ثم هو يحب المدح و يبتذل لسماعه، و هذا يدلنا على ان الغاية الاولى للانسان هي الكمال المطلق، و ان الجودة التي يتمناها لصفاته، و يتوجه اليها في جميع أعماله إنما هي مظهر من مظاهر هذا الكمال الذي تنتهي اليه جميع غاياته، و ترتبط به جميع مقاصده، و اذا علمنا أن علم الاخلاق يبحث في صفات الانسان، و أعماله و في كيفية تهذيبها، و ارجاعها الى التوازن فقد اتضح لنا أن غاية علم الأخلاق هي إيصال الانسان الى الكمال المطلق في أخلاقه و أعماله، و اذا كان هذا بنفسه تعريف السعادة على ما يقوله بعض الفلاسفة المقدمين كانت النتيجة ان غاية علم الاخلاق هي السعادة للانسان.

«سعادة كل كائن حصوله على كماله الذي قد تهيأ له» بهذا

يحددون معنى السعادة ثم يقولون في تعليقه: ان الوجود على الاطلاق خير، و اذا كان الخير مما يقبل التفاضل بين افراده، كان كمال ذلك الوجود خير ذلك الخير، و اذن فالكمال المطلق الذي يتوجه اليه الانسان في اعماله و صفاته هو «الخير الأعلى»، و هذا هو تعريف السعادة عند ارسطو فالتعريفان يشيران الى معنى واحد، على ان بين السعادة و الخير فرقاً من وجهة اخرى .

و يرى قوم من الفلاسفة: ان الغاية الاولى للانسان من جميع اعماله هي اللذة<sup>١</sup> و قد اخذت هذه النظرية دوراً مهماً بين الفلاسفة المحدثين، و من اهم ما يؤخذ عليها من وجوه النقد.

(١) ان الغاية هي النتيجة التي يهدف اليها العامل و يوصل اليها العمل، و لذلك فيجب ان تكون متأخرة عن العمل في الوجود، و اللذة تصاحب العمل في اكثر الأحيان و تنتهي بانتهائه، فلا يمكن ان تعتبر غاية له .

فن يتقدم للدفاع عن وطنه، او للجهاد عن دينه، يجد لعمله هذا لذة حين هو يدافع او يجاهد، و لكن هذه اللذة ليست غايته من جهاده او دفاعه لانها تقارنها في الوجود، و غاية الشيء لا تقارنه، ثم هو قد يقتل، و قد يحول دون فوزه في الجهاد حائل فلا تستمر اللذة الى ما بعد العمل فكيف تكون غاية له، و في كثير من الاشياء تكون اللذة حين العمل اشد منها بعد انتهائه .

(٢) وان الانسان قد يصدر أعمالاً بدافع من غريزته قبل ان يعلم ان هذه الاعمال سارة او مؤلمة، و اللذة و الألم شعوران لا يحصلان للنفس الا بعد الاختيار و التجربة .

(١) اللذة شعور نفسي خاص يحصل للانسان عند ارضاء رغبة من رغباته، و هي تكون على قسمين عقلية و جسدية، فارضاء رغبات العقل لذات عقلية، و ارضاء رغبات الجسد لذات جسدية، و يقابلها الألم في جميع ذلك .

فالطفل حين يرتضع ثدي امه لأول مرة، وهو حين يبكى اذا تأخر عنه الرضاع لأول مرة انما يعمل ذلك بدافع من غريزته الى الرضاع او الى البكاء، لا لآثه يجد لذة في الرضاع او يحس بألم في الحرمان، لانه لم يختبر ذلك بعد.

على ان الانصاف يقتضينا ان نعتدل في الحكم على هذه النظرية بالصحة او بالفساد، فهي ليست بمطلقها صحيحة لما قدمناه من الأدلة ولما لم نذكره منها حذراً من الاطالة، وهي ليست بمطلقها فاسدة، لأننا نجد الانسان يصدر بعض اعماله لمجرد اللذة ولا يتطلب منها غاية اخرى. واذن فالفعل الذي يعمله الانسان بارادته واختياره يكون على قسمين:

(١) اخلاقي: وهو الذي يكون مظهراً للخلق الصحيح والذي يكون صدوره باشارة العقل وارشاده، وهذا هو الذي يجب ان تكون غايته هي الكمال الانساني المطلق، واذ اعقت هذا النوع من العمل لذة فهي شيء آخر يصحب الغاية؛ يتقدم عليها او يقارنها في الوجود.

(٢) غير اخلاقي: وهو الذي لا يعد كذلك، وفي هذا الصنف من العمل الاختياري قد تكون الغاية هي اللذة، وقد تكون الغاية هي الكمال، وقد تكون شيئاً يتوهمه الفاعل كمالاً.

وسواء ثبت ان اللذة بمطلقها خير ام لم يثبت، فلا يسعنا التصديق بان السعادة هي اللذة مادامت السعادة هي الخير الأعلى و كان اكثر اللذات مصحوباً بالألم.

لبعض الفلاسفة ان يجعل الغاية من جميع الاعمال هي اللذة، ولهم ان يختلفوا في تعيين هذه اللذة وتوصيفها، وللاستاذ احمد امين ان يفسر معنى السعادة «باللذة والخلو من الألم» اذا احب ان يختار هذا التفسير على ان يكون ذلك رأياً خاصاً له في معناها، ولكن ليس له ان يجعل ذلك تفسيراً



للسعادة عند جميع الفلاسفة .

نحن لا ننكر ان من الفلاسفة من يوافق الاستاذ على هذا التفسير، و لكننا ننكر عليه ان يجعله رأياً للجميع فيقول : « و يعنون بالسعادة اللذة والخلو من الالم » .

السعادة هي الخير الأعلى ، بهذا تعرفها الخاصة ، وهذا ما تفهمه العامة من معناها أيضاً ، و اذا تجدد بين الفريقين اختلاف بعد ذلك فانما هو في تعيين أفراد الخير الأعلى ، فان الخاصة تعرف من الخير الأعلى مثالية سامية ، لا تدركها عقول العامة ، و للعامة في تحديده رأي قصير لا تدعن له الخاصة .  
تدرك العامة من الخير الأعلى معنى بسيطاً تحدده لها أنظار بسيطة ، فترى أن السعادة هي الثروة ، و الصحة ، و الرفاه ، لأنها لا تعرف من الخير الأعلى غير هذا و ما يشبهه ، و الخاصة لا ترى في ذلك ما يسمى كمالاً ، و لا تعد الحصول عليه سعادة ، إلا اذا كان للسعادة معنى آخر<sup>١</sup> .

و كمال النفس عند هؤلاء ارتقاؤها الى المراتب العقلية الرفيعة ، و استيفاء حظها من الانسانية الكاملة و بين هاتين الطائفتين طبقات متوسطة تعرف من الكمال و من الخير الأعلى غير ما يعرفه هؤلاء جميعاً فتكون السعادة عندهم شيئاً آخر .

أما الامام الصادق (ع) فيقول : « دعامة الانسان العقل - و بالعقل يكمل »<sup>٢</sup> و يقول : « اليقين يوصل العبد الى كل حال سني و مقام عجيب »<sup>٣</sup> و يقول « إن الايمان أفضل من الاسلام و ان اليقين افضل من الايمان ، و ما

(١) قد يطلقون اسم السعادة على ما يوصل الى الخير الاعلى و للترفة بين المعنيين يسمون هذه بالسعادة المضافة على حد قولهم بالخير المضاف .

(٢) اصول الكافي الحديث ٢٣ باب العقل والجهل .

(٣) « جامع السعادات ص ٧١ .

من شيء أعز من اليقين»<sup>١</sup> ويقول «إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»<sup>٢</sup>.

وهذا الرأي هو الذي يقرره المثاليون من الفلاسفة فهم يقولون: الكمال رقي النفس في مراتبها العقلية، والامام يقول (الروح والراحة في اليقين) واليقين أعلى مراتب الحكمة والانسانية الكاملة التي يقولون بها هي الايمان الكامل الذي جعله أفضل من الاسلام ومن مطلق الايمان ولعلك تلمس من لفظ الروح في قوله؛ معنى اللذة في قولهم؛ لأنه يقابله بالهم والحزن وإذن فالكمال في الرأيين بمعنى واحد وحصول ذلك الكمال للانسان هو الخير الأعلى أو السعادة. وقد يكون هذا هو معنى النجاة في قوله (السعادة سبب خير يتمسك به السعيد فيجره الى النجاة)<sup>٣</sup> وإذا أردت ما هو أكثر صراحة في ذلك فهو يقول (إذا منّ الله على العبد جمع له الرغبة في المعروف والقدرة والاذن فهناك تمت السعادة والكرامة)<sup>٤</sup>.

للايمان في رأي الامام الصادق طرفان: اعتقاد وعمل. ومرتبة اليقين هذه تأخذ بالاعتقاد الى حد الكمال وتبسط على العمل فضيلة التوازن وبذلك يحصل الايمان الكامل الذي هو أفضل من الاسلام ومن مطلق الايمان، وتم السعادة والكرامة.

ويقول الامام أيضاً (لا ينبغي لمن لم يكن عالماً أن يعد سعيداً)<sup>٥</sup> وكيف ينال السعادة من حرم كمال العلم، وكيف تحصل الانسانية الكاملة لمن يقوده الجهل.

(١) اصول الكافي الحديث الأول باب فضل الايمان على الاسلام.

(٢) اصول الكافي الحديث ٣ باب فضل اليقين.

(٣) احتجاج الطبرسي ص ١٩١، أما لفظ السعادة في الحديث فهي السعادة المضافة لأنه يقول

هي سبب خير.

٤، ٥ تحف العقول ص ٨٩

## الخير

علمنا ان كل تصرف يصدره الانسان باختياره فهو مسبوق بالتفكير في نتائجه وبالموازنة بين الجهات المرجحة لفعله ولتركه. واذن فهنا أشياء نشتاق اليها في نفوسنا ونتوسل الى تحصيلها بأعمالنا ونعد الفعل الذي يوصلنا اليها راجحاً. وهنا أشياء أخرى ننفر منها بمقتضى طباعنا ونجتنب العمل الذي يؤدي بنا اليها ونعده مرجوحاً. وقد أطلق الخلقيون على الأشياء الاولى كلمة الخير وعلى الأشياء الثانية كلمة الشر وهم يحكمون على العمل بأنه خير أو شر بملاحظة ما ينتجه من الجهات المذكورة، وإن اختلفوا في موازين الخير والشر والمقاييس التي تقاس بها الأشياء ليعلم أنها خير أو شر وقد يوجهنا البحث الى هذه الناحية فيما يأتي:

(الخير هو موضوع جميع الآمال) هكذا يقول أرسطو في تعريف الخير! ويقول فيلسوف آخر «الخير ما يتشوقه الجميع» ويقول ثالث «هو ما يقصده الجميع في أعمالهم» وبين هذه التعاريف فروق واضحة إلا أنها تجتمع على الجهة التي ذكرناها.

ولفظ الخير عند الخلقين القدماء يحكي معنيين متناسبين و للتفرقة بينهما يصفون أحدهما بالخير المطلق والثاني بالخير المضاف، و التعاريف المتقدمة تحدد الخير بمعناه الاول.

والخير المضاف هو كل وسيلة توصلنا الى الخير المطلق والفارق بينهما هو الفارق بين الوسيلة والغاية، أو بين الغرض الأدنى والغرض الأقصى.

(١) كتاب علم الاخلاق لـ «نيقوماخوس» تعريب الاستاذ احمد لطفي السيد بك ص ١٦٨ من الجزء

قد توصلنا الغاية الى غاية اخرى اسمى منها فتكون الغاية الاولى خيراً مضافاً لأنها اوصلتنا الى الخير المطلق ولنا ان نعتبرها خيراً مطلقاً أيضاً لأنها غاية بعثنا اليها الشوق وتوصلنا الى حصولها بالعمل .

والامام الصادق (ع) يذكر المعنى الاول من الخير فيقول : « جعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا<sup>١</sup> ويقول « السعادة سبب خير يتمسك به السعيد فيجره الى النجاة»<sup>٢</sup>.

ويذكر المعنى الثاني فيقول « اذا أردت شيئاً من الخير فلا تؤخره»<sup>٣</sup> و يقول : « افتتحوا نهاركم بخير، واملوا على حفظتكم في أوله خيراً وفي آخره خيراً<sup>٤</sup> و يقول : « أحسن من الصدق قائله و خير من الخير فاعله»<sup>٥</sup>

(١) اصول الكافي الحديث ٣ باب الزهد (٢) احتجاج الطبرسي ص ١٩١ (٣) أمالي الصدوق ص

(٤) ٢٢٠ (٥) اصول الكافي الحديث ٣ باب تعجيل الخير (٥) الجزء ١٥ من البحار باب الصدق ولزوم أداء

(٣)

# الاعتدال والانحراف

«ومن كان عاقلاً كان له دين»

«ومن كان له دين دخل الجنة»

الامام الصادق (ع)

(٦)

تفانيد كماله عالمته لا

منه من كماله عالمته لا

منه من كماله عالمته لا

منه من كماله عالمته لا

(٣)

## الاعتدال والانحراف

الغرائز قوى فطرية تسوق ارادة الحيوان الى العمل، وتظهر في الانسان على أشكال ميول ورغبات، ولذلك فالخلق النفسي مدين في وجوده للغريزة قبل أن يكون مديناً للعادة (لأن الغريزة هي الدافع الأول الى إيجاد العمل. و العادة هي الدافع الثاني الى تكراره) والغريزة تبذر الخلق في النفس لتنمية العادة، و الغريزة تعين الغاية التي تتوجه اليها الارادة ثم تتبعها العادة و يتكون الخلق.

ومن الواضح أن الناس مختلفون في اتباع ميول الغريزة فان بعضهم يتبعها بأعماله الى حد الافراط، وبعضهم يتجافى عنها الى حد التفريط، فاذا تكرر العمل من هؤلاء وهؤلاء نشأت لهم عادات منحرفة و اكسبتهم العادات اخلاقا غير مستقيمة.

وفريق من الناس يعتدلون في اتباع هذه الميول فتنشأ لهم العادات المعتدلة، و يكتسبون منها الاخلاق السوية. ومن البين ايضا أن هذه الغرائز لم تجعل في الانسان ليتبعها في كل ماتأمر وتنهى، ولو كان الامر كذلك لم

يرتفع الانسان عن درجة الحيوان، ولا ليزهد فيها كما يزهد في الشيء التافه؛ لانها اودعت فيه لضرورات يقتضيها بقاءه وبقاء نوعه، واذن فالاعمال التي يتجاوز بها الناس حد الاستواء أعمال غير صالحة، والاخلاق التي يكتسبونها من تكرار هذه الاعمال أخلاق غير صحيحة، واذن فأعراض الاخلاق انحرافات، وصحتها استقامة وتوازن، وبعد الخلق الفاسد عن الصحة بمقدار انحرافه عن التوازن العادل.

ويرى القدماء من علماء الاخلاق أن للانسان قوى أربعاً، يسمونها بالصورة الباطنة للانسان على قياس الصورة الظاهرة وهذه القوى هي قوة العقل، وقوة العمل، وقوة الشهرة، وقوة الغضب. ويقولون: إن هذه القوى هي أصول الاخلاق عليها تفرع، وبيها تنتسب فباعتماد كل واحدة من هذه القوى تحصل احدى الفضائل الاربع التي يسمونها أمهات الفضائل او الفضائل الرئيسية، ويقابل كل واحدة من هذه الفضائل رذيلتان تنشآن من انحراف القوة الى طرف الافراط، أو الى حد التفريط. ولا يحصل هذا الشذوذ الا اذا ضعفت سيطرة العقل على القوى وقصر نفوذه عن ادارة الحكم.

يشذ بعض القوى حينذاك ويثور به الطمع ولكنه لا يستطيع أن يصل الى غايته الا اذا استخدم قوة العمل؛ وهو بعد جاهل باسباب النجاح؛ فهو محتاج الى مرشد يمهده له الطريق ويرفعه دون غايته الحواجز. قوة العقل لا تمديداً لمساعدة ظالم ولا تعين مستأثراً على بلوغ اهدافه مهما بلغ بها الضعف؛ ومهما بلغت بذلك المستأثر القوة الا ان يعود العقل حقماً، وينقلب العلم جهلاً.

واذن فليس لتلك القوة المتطرفة غير قوة الوهم التي تخلق الحيل وتستنبط الاعذار<sup>٢</sup> فتستعين بها على اخضاع قوة العمل ويتم لها ما تريد.

(١) يقول المتقدمون من الحكماء «للانسان في ادراكاته الجزئية قوى ثلاث:

٢- الواهمة وهي التي يتصور بها المعاني الجزئية. ٢- الخيال وهي التي يدرك بها صور الاشياء





اما العقل فهو يرصد هذه الفوضى بعين الناقد النزيه. يحفز رشده على الوثبة، ويقعده بضعفه عن الاصطدام بقوة لا قبل له بها؛ ثم يلجئ الموقف الى السكوت؛ ولا بد للضعيف ان يخفت صوته امام القوة فتشذ الاخلاق ثم تشذ وتسقط النفس في صفاتها ثم تسقط وتذهب في سقوطها الى حد بعيد.

ولضعف القوى أثر في جفاء الاخلاق؛ وسقوط الملكات لا يقل خطراً عن أثر الافراط في القوة.

يقف بالضعيف شعوره بالنقص، و يقعده عن بلوغ حظه من الكمال. وليت الضعف يقف به عند هذا الحد، ولكن الانصاف غير منتظر من عدو غادر، سيتناهى به الى ابعد حد، ويستولي عليه الشعور بالنقص حتى تأنس به نفسه، وحتى تتوهم ان لها من الضعف قوة، ومن النقص كمالاً وتنطبع الحالة فيها ملكات.

وقد يحصل التوازن العادل في القوى فيتولد منه الاعتدال في الاخلاق والعدالة في النفس، وانما يتكون هذا التوازن اذا عمت سلطة العقل على الغرائز، واذعنت لحكمه جامحات القوى، فيتسلم زمام التدبير، ويستقل بادارة الحكم. وللعقل في تدبير هذه المملكة الصغيرة أنظمة قد يخطئها مدير مملكة واسعة. وليس للعقل وراء هذه القوى والغرائز جنود اخرى يخضع بها الجائر ويهدىء بها الثائر، ولكنه بحكمته يضرب بعض القوى ببعض، فيضع الشهوة بالغضب ويكسر الغضب بالشهوة ويستعين على ذلك بنواميس الشرع وتقاليد العرف.



الخاصة ٣. المتخيلة: وهي التي يؤلف بها بين صور الخيال ومعاني الواهمة.

وقوة الوهم هي مزيج من هذه القوى الثلاث وفائدتها وراء هذه الادراكات انشاء الخيل وتمهيد الطرق للحصول على الغايات الخاصة من غير فرق بين الغايات الصحيحة وغيرها؛ ولذلك فهي في سلوكها خاضعة لقانون التوازن والانحراف ايضاً.

تسكن الفوضى وينقاد الصعب ويتقوى الضعيف ويتمائل المريض بفضل الحكمة والارشاد ويتدير الحاكم المصلح، ويعم التوازن العادل بين الحاكم وأفراد الرعية فلا طمع ولا استئثار. هذه هي الحكومة المثالية والعادلة، والعدالة الخلقية باسمي معانيها والفضيلة الكبرى التي ترسم للانسان طرق الفضائل الفرعية، وذلك هو الدين الذي يقول عنه الامام الصادق (ع): «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة»<sup>١</sup> اجل من كان عاقلاً كان له دين، وهل الدين غير التوازن في الاخلاق، والاعمال والعقائد؟ وهل العقل الارائد الخير ودليل السعادة؟

ويقول في كلمة اخرى: (اكمل الناس عقلاً احسنهم خلقاً)<sup>٢</sup> وفي كلمة ثالثة: (العقل دليل المؤمن)<sup>٣</sup> على ان الامام الصادق (ع) يجري في تقسيم الاخلاق مجرى آخر. فيرى ان الفضيلة الكبرى هي العقل، وان جميع الفضائل الاخرى متفرعة منه يسقيها من ينبوعه ويمدها من حكيمته، وان البرذيلة الاولى هي الجهل، وبقية الرذائل فروع منه ولذلك فهو يقول في حديث طويل: (اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا)<sup>٤</sup> ثم يعد الاخلاق السامية في جنود العقل، والصفات الوضيعة في جنود الجهل.

وهو يريد من العقل الكامل الذي لم تخف به كفة التوازن الى حد التفريط، ولم تتعبه الى حد الافراط. وهو الذي يقول عنه في الحديث المتقدم: (من كان عاقلاً كان له دين)، وفي حديث سيأتي: (وهو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان)<sup>٥</sup> ويريد من الجهل ما يقابل هذا العقل المتوازن.

(١) الكافي الحديث ٦ كتاب العقل والجهل (٢) الحديث ٧ من المصدر المذكور (٣) الحديث ٣٤

من المصدر.

(٤) اصول الكافي الحديث ١٤ كتاب العقل والجهل.

(٥) الحديث ٣ من المصدر المتقدم.

وهذا المسلك شبيه بمسلك (سقراط) في تقسيم الاخلاق وهو أبعد منه عن النقد، وأكثر موافقة للبرهان.

يقول سقراط: الفضيلة الاولى هي العلم، والرذيلة الاولى هي الجهل. ولذلك فقد كان رأيه هذا موضعاً للنقد: لأننا نجد ان بعض الناس يرتكب الاخطاء الخلقية وهو عالم بشناعة ما يرتكب فلم يسقه علمه الى الفضيلة، ولم يردعه عن ارتكاب الرذيلة.

اما الامام فيقول: ان الفضيلة الكبرى هي العقل، ومن البين ان الانسان انما يرتكب الاخطاء الخلقية اذا ضعفت موازنته بين الغايات أو شد به بعض الاخلاق عن التوازن. وهذا لا يكون إلا حين ينحرف العقل عن الاستقامة او يضعف عن الحكومة.

و اما النقد الذي يوجهه (ارسطو) لنظرية (سقراط) هذه حين يقول: (ان سقراط جهل او تناسى ان نفس الانسان ليست مركبة من العقل وحده وتخيل ان كل اعمال الانسان خاضعة لحكم العقل ومن ثم اذا علم العقل فضل العمل، ولكنه نسي ان اكثر أعماله محكومة بالعواطف والشهوات، اذ ذاك قد يقع في الخطأ مهما علم العقل).

أقول اما هذا النقد فلا يتوجه الى مسلك التقسيم الذي نقلناه عن الامام الصادق (ع) لانه لا يقول ان نفس الانسان مركبة من العقل وحده ولكنه يقول: للعقل المستقيم سيطرة واسعة يخضع بها العواطف اذا ثارت، ويقود بها الشهوات اذا جمحت ويوازن بها بين القوى اذا تضاربت. ولذلك فالاخلاق المستقيمة مدينة في وجودها للعقل المستقيم، وهي جنود مدربة تناصره على اصلاح الملكات الاخرى.

(اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا)، هذا عنوان لحديث اخلاقي طويل، له روعته وله جماله؛ يميله الامام الصادق على اصحابه ليتهتدوا.

يعرض الامام في حديثه هذا صفيين مستطيلين من الاخلاق يتقابلان كما تتقابل الجيوش المتحاربة. فهما متناقضان في المبادئ ومتزاحمان في المقاصد؛ وهما متماثلان في القوة؛ ومتكافئان في العدد؛ يقف كل واحد منهما لصاحبه بالمرصاد؛ فالصف بازاء الصف، والفرد يقابل الفرد، والهدف يعارض الهدف.

حرب سجال؛ ومعارك دامية؛ وللنفس من ذلك موقف الحائر الوجل المتطلع الى غاية مجهولة بين عدوين عنيدين لا يخضعان لصلح ولا يرغبان في سلم. يريد كل واحد منهما الاستيلاء عليها والاستقلال في حكومتها. هي حرب اهلية متكافئة القوى؛ متماثلة العدد، ومصير النفس موقوف على ظهور الظاهر وظفر الظافر؛ تنتظم الاخلاق الفاضلة في الصف اليمين منها وتقابلها رذائل الملكات الى اليسار و يشاء البيان الغني للامام (ع) ان يسمي اهل اليمين جنود العقل؛ وهو تشبيه رائع؛ ونكتة نادرة.

الاخلاق الفاضلة جنود؛ لانها تطارد الاخلاق الذميمة لتخلص النفس من سيطرتها ونفوذها؛ وهي جنود العقل لانها تنضوي تحت لواء العدل الذي ترفعه حكمة العقل، وهي جنود العقل لان العقل هو المنظم الاول لصفوفها والباعث الاول لروح التعاون بين افرادها.

يعد الامام لنا في حديثه هذا خمسة وسبعين جندياً من انصار العقل يقابلها مثلها من جنود الجهل ثم يقف.

ولم ينته به التعداد لانتهاء جنود العقل بذلك؛ ولكنه يذكر الافراد البارزة من قادة الجيش؛ وذوي الشارات الواضحة من امراء الجنود. وعلى هذا الغرار وبمثل هذه الاستعارة الجميلة يقول في صفة المؤمن في حديث آخر: (والعقل امير جنده)<sup>١</sup>.

(١) اصول الكافي الحديث الاول من الباب الثاني من نسبة الاسلام.

(٤)

# الانسانية الكاملة

«دعامة الانسان العقل - وبالعقل يكمل»

«وهو دليله ومبصره ومفتاح امره»

الامام الصادق (ع)

(٤)

مذاهب الأئمة الأربعة

مجلد اول - فقه الحنفی  
مجلد دوم - فقه الشافعی  
(مجلدات دیگر)

(٤)

### الانسانية الكاملة

فضائل الملكات اوساط ؛ و رذائلها اطراف و انحرافات . هكذا يقول (ارسطو) و هكذا تقول مثالية الشرع المقدس و الخلقيون من فلاسفة الاسلام .

و الفلاسفة من المحدثين يأخذون على هذه النظرية امورا و يوجهون اليها نقودا اهمها مايلي :

النقد الاول : ان معرفة الاوساط الحقيقية تحتاج الى مقياس عام تقاس به الملكات و القوى و تعرف به نسبة الاوساط الى الاطراف على ان يكون هذا المقياس مضبوطاً يستحيل عليه ان يتخلف و ان ينتقص ؛ و لا يوجد عندنا مثل هذا المقياس العام . و جوابه : ان المقياس العام الذي تعرف به النسبة هي الانظمة العامة التي يقررها العقلاء فيما بينهم و التي تفرهم عليها الشريعة الالهية المعصومة ؛ اما الذين لا يعترفون بالشريعة و لا يدعونون لقوانينها ؛ فالمقاييس عندهم تختلف باختلاف التقاليد و العادات و هذا احد الجهالات التي تشهد باحتياج الناس الى الدين .

النقد الثاني: ان من الاخلاق ما يسميه العقل فضيلة و يعد السلوك فيه سلوكاً متوازناً وهو ليس من الاوساط كالصدق فان ضده هو الكذب وليس له طرف آخر؛ وكالعدل فانه يقابل الظلم فقط والاشياء لا تكون اوساطاً الا اذا كان لها طرفان تنسب اليهما.

وجوابه: اننا نريد من الاوساط ما يقابل الافراط في القوى او التفريط فيها ولذلك فان فروع القوة المعتدلة تعد من الفضائل وان كانت اطرافا وفروع القوة المنحرفة تحسب من الرذائل وان كانت اوساطا؛ وملكة الصدق فرع من العفة او من الشجاعة وهما قوتان معتدلتان.

اما العدل فقد نعني به ضبط قوة العمل ووضعها تحت ارشاد العقل، وقوة العدل هذه ليست ملكة خاصة الا انها تعم جميع الملكات النفسية المعتدلة والظلم الذي يقابلها هو ارخاء العنان لقوة العمل في كل ما تريد وهو يعم كل ملكة منحرفة. اذن فهو معنى عام شامل وليس ملكة معينة لتقاس اليها ملكات العدل.

وقد نعني بالعدل الانصاف واعطاء الحقوق لأهلها كاملة غير منقوصة وهو بمعناه هذا فرع من فروع العفة او الشجاعة ويقابله من جانب الافراط؛ التعدي على حقوق الناس وفي جانب التفريط؛ اهمال الحقوق المحترمة للنفس. ويحاول الاستاذ محمد احمد جاد المولى (\*) ان يجعل الصدق وسطا بين الكذب والمبالغة وهو تكلف في الجواب لان المبالغة نوع من الكذب.

النقد الثالث: ان الفضائل الخلقية في الاكثر لا تكون اوساطاً لان الوسط الحقيقي هو المنتصف والفضائل الخلقية منها ما يقرب من الافراط فان فضيلة الكرم قريبة من السرف وفضيلة الشجاعة قريبة من التهور ومن الفضائل ما يقرب من التفريط كالحلم والتواضع فانها قريبان من الجبن



واضاعة الحقوق .

و جوابه : ان الوسط ليس نقطة معينة بنسب بعدها الى الطرفين على السواء لنحكم عليه بأنه المنتصف ، ولذلك فانا نحكم على الفضائل بالشدة والضعف ؛ والضعيف منها نعدّه فضيلة و ان كان ضعيفا لانه معتدل ؛ و نتيجة هذا ان الكرم اذا نسبنا ارقى مراتبه الى الاسراف و التبذير ثم نسبنا ادنى مراتبه الى البخل لم نجد احد البعدين أكثر من الآخر و مثله الشجاعة اذا اضفناها الى الجبن و التهور .

النقد الرابع : اذا كان الميزان في عدّ الخلق فضيلة هو التوسط ، و جب ان يكون التوسط في الفضيلة أسمى منزلة عند علماء الأخلاق من الترقى فيها ، لأن التوسط فيها أقرب الى الاعتدال الصحيح و أبعد من طرفي الانحراف و هذه النتيجة لا يرتضيها علماء الأخلاق .

و جوابه : ان الوسط مجموعة نقاط معينة ننسبها الى الطرفين بنسبة واحدة و معنى هذا ان جميع هذه النقاط توسط في القوة و اعتدال فيها و يكون ارتفاع النفس في هذه المراتب رقياً في درجات الكمال .

و قد تبسطنا في التحدث عن هذه النظرية لأنها قد اخذت دوراً مهماً من الجرح و التعديل عند الخلقين ولأنها هي النظرية السديدة التي يحكم بها العقل و يقرها الشرع .

والامام الصادق (ع) يذكرها فيقول : ( و اعلم ان لكل شيء حداً . فان جاوزه كان سرفاً ، و ان قصر عنه كان عجزاً ) .

الاعتدال في قوة الغضب شجاعة و التطرف فيها جن أوتهور ، و التوازن في قوة الشهوة عفة ، و الانحراف فيها شرهة أو خمود ، و لكل من هذه الملكات فروع كثيرة .

و ليس الحكم بالانحراف و الاستقامة مختصاً بالشهوة و الغضب بل

هو حكم عام لجميع القوى ونظام شامل لجميع الاشياء على ما يقوله الحديث المتقدم وإذا كان للانسان جهة تميزه فلانه الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يرسم لنفسه طريق التوازن، وأن يصل بعمله الى السعادة والخير الأعلى .

والعقل نفسه أحد الخاضعين لهذا الحكم، فانه أطوع من يذعن للحق، وأساس من ينقاد للنظام العادل .

فقد تحف بالعقل كفة التوازن فيكون حمقاً، وقد يتجاوز الاستقامة فيكون خداعاً أو حكمة باطلة، وكلا. الطرفين شذوذ عقلي ورذيلة خلقية، و قد يتوازن فيكون حكمة ودليلاً على الخير والهدى .

ويقول الامام الصادق (ع) في صفة العقل المستقيم، هو (ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان)<sup>١</sup> ويقول أيضاً (العقل دليل الأمن)<sup>٢</sup> أما الحكمة الباطلة فانه يسميها بالشيطنة النكراء حين يسأله بعض أصحابه عن عقل معاوية فيقول (ع): (تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل<sup>٣</sup> و ان الحكمة الباطلة شيطنة نكراء، لانها خداع يشبه الحكمة، و باطل يشبه الحق، وهي نكراء لانها تعاند الفضيلة المحبوبة).

ثم هو يقول في الرذيلة الثانية: (ما خلق الله شيئاً أبغض اليه من الاحق لأنه سلبه أحب الاشياء اليه وهو العقل<sup>٤</sup>).  
ويقول ايضاً: (لا يفلح من لا يعقل<sup>٥</sup>).

أما قوة العمل فهي الخاضع الأول لارشاد العقل و باستقامتها يحصل التوازن العام لجميع الملكات لأننا قد علمنا ان ايجاد الأعمال من

(١) اصول الكافي الحديث الثالث من كتاب العقل والجهل .

(٢) الحديث ٣٤ من المصدر المذكور .

(٣) اصول الكافي الحديث الثالث من كتاب العقل والجهل .

(٤) علل الشرائع للصدوق ص ٤٥ .

(٥) الكافي الحديث ٢٩ من كتاب العقل والجهل .

مختصات هذه القوة، وليس في استطاعة القوى الأخرى أن تصل الى غاياتها اذا لم تعنها قوة العمل.

فاذا خضعت هذه القوة لحكم العقل واتبعت رشفه وهداه كانت أرفع من أن يؤثر فيها خداع الوهم، أو تغمرها صولة الغضب، أو تأسرها لذادة الشهوة لان الذي يتبع العقل لا يحفل بالأوهام والأحلام.

ستندحر أمامها قوة الغضب، و سلطان الشهوة و يستمر الاندحار عليها في كل معركة، و يتصل الانهزام في كل نضال و سيخضعان راغمين لحكومة العقل، و يدعنان لقوة العدل. فالتوازن في جميع ملكات النفس نتيجة للتوازن العادل في قوة العمل، والانحراف في تلك نتيجة التطرف في هذه و ليس لقوة العمل ملكة خلفية خاصة تنفرد بها، الا أن الأخلاق الفرعية لجميع القوى انما تتكون بمعونتها، وإرادة الانسان هي المحرك لهذه القوة فان من الاعمال ما يصدره الانسان مقسوراً عليه كالتنفس و ضربات القلب، و من الاعمال ما يصدره بارادته و اختياره، و قد علمنا أن هذا الأخير هو العمل الذي نحكم عليه بالخير أو الشر، و هو السلوك الذي يعتبره الخلق أثراً للصفات النفسانية، و هو العمل الذي تتكون العادة بتكراره و يتكون الخلق باعتياده.

و لسنا بصدد بيان عناصر الارادة في الانسان، فان لها بحثاً نفسياً خاصاً بها، و لا يهمننا أيضاً أن نتعرض للبحث في كون الارادة حرة أو مسخرة فان له موضعاً آخر. و قد اثبت فريق من الفلاسفة و علماء الكلام لارادة الانسان الحرية الكاملة في العمل، و نفى حريتها جماعة آخرون منهم، و الامام الصادق (ع) ممن يعتدل في ذلك فيقول: (لا جبر ولا تفويض و لكن أمرين امرين<sup>(١)</sup>).

أما هؤلاء الذين يقولون: ان الانسان مجبور في كل ما يعمل و ان

(١) الكافي الحديث ١٣ باب الجبر والقدر.

ارادته مسخرة لما ينفذه القضاء فانهم ينكرون محسوسا ويوجدون واضحاو  
يكفي لابطال هذا الرأي أنه يلغي فائدة علم الأخلاق ويبطل بشرع القوانين  
للحد من الجرائم وفرض العقوبات على المجرمين .

ارادة الانسان هي المحرك الاول لقوة العمل ، وبقوة هذه الارادة  
تكافح الغرائز الشاذة وتصطدم الميول المتطرفة ، وبقوة الارادة تبتدىء  
الفضيلة ، ويتم التوازن . وقد سمعنا قول الامام الصادق (ع) : ( ما ضعف  
بدن عما قويت عليه النية )<sup>١</sup>

الارادة عزيمة في الانسان يوجد بها ما يروم ويدفع بها ما يكره ولها  
بسائر القوى الانسانية أسوة فهي تتصف بالقوة والضعف ، وقوى الارادة .  
هو الانسان العظيم الذي يأتي بالعجاب ، ويفعل ما يشبه المعجزات ، إذا  
احسن توجيه ارادته الى اعمال الخير ومحاسن الصفات ، أما اذا توجه بها الى  
اعمال الشرّفانه يجرعلى نفسه نقضا آخر لا يقل خطراً عن ضعف الارادة .  
والعلماء النفسانيون يذكرون لتقوية الارادة شروطا ويدرجونها في عدد من  
النصائح :

«١» عين هدفك الاول قبل ان تبدأ بالعمل ثم لا تتردد بعد ذلك فان  
التردد يضعف الارادة .

«٢» : لا تضع وقتك في ايجاد اعمال قليلة النفع ، أو ما تكون  
نتيجته ذهاب الوقت فقط فان الوقت - كما يقولون - من ذهب .

«٣» ثق بأنك قادر على الوصول الى ما تريد ، فان الثقة بالنفس  
تخفف عنك جهد العمل وتقطع لك نصف المسافة .

«٤» ثابر على العمل واثقته وان كان شاقا فان الفوز نتيجة المثابرة  
والا تقان .

«٥» عاود العمل بنشاط أكثر اذا أخفقت في عملك . فان الصعب

(١) امالي الصدوق ص ١٩٨ .

يسهل ، والفقدة تحل .

«٦» اجعل نصيبا من منهاجك اليومي للعمل فان النفس يجهدا

العمل المتواصل .

هكذا تنمو الارادة وتسمو، والرجل العظيم وليد ارادته واعماله .  
 كمال قوة العقل هى الحكمة النظرية والعملية بأرقى مراتبها و  
 كمال قوة العمل سلوكها على النظام العقلي الرشيد، وقد يصل الانسان فى  
 هاتين القوتين الى حد كمالها فيسميه الخلقون بالانسان الكامل ويصفون  
 انسانيته بالانسانية الكاملة، والامام الصادق (ع) فى عداد من يصفه بهذا  
 الوصف فهو يقول: «دعامة الانسان العقل - وبالعقل يكمل»<sup>١</sup>

ولنستمع الى بقية هذا الحديث فان الامام يوضح فيه معنى  
 الانسانية الكاملة عنده فهو يقول: «فاذا كان تأييد عقله من النور كان  
 عالما، حافظا، ذا كراً، فطنا، فهما، فعلم بذلك كيف، ولم . وحيث، وعرف  
 من نصحه، ومن غشه، فاذا عرف ذلك عرف مجراه و محصولة ومفصوله، و  
 اخلص الوجدانية والاقرار بالطاعة»، هذا هو حد الكمال فى قوة العقل، و  
 هذه هى الحكمة التى يقول الفلاسفة فى معناها: «هى معرفة حقائق  
 الموجودات» وأعلى مراتبها هو اليقين الذى يعرف فيه الانسان مجراه و  
 موصولة ومفصوله، والذى يكون اثره الاخلاص فى الوجدانية والاقرار  
 بالطاعة والذى قال فيه فى كلمة سابقة (اليقين يوصل العبد الى كل حال  
 سني ومقام عجيب)<sup>٢</sup>.

أما الكمال فى قوة العمل فقد أتم الامام به حديثه المتقدم فقال:  
 (فاذا فعل ذلك كان مستدركا لما فات وواردا على ما هوأت).

يقول الخلقون القدماء . للعقل جهتان جهة نظرية . وجهة عملية

(١) الكافي الحديث ٢٣ باب العقل والجهل .

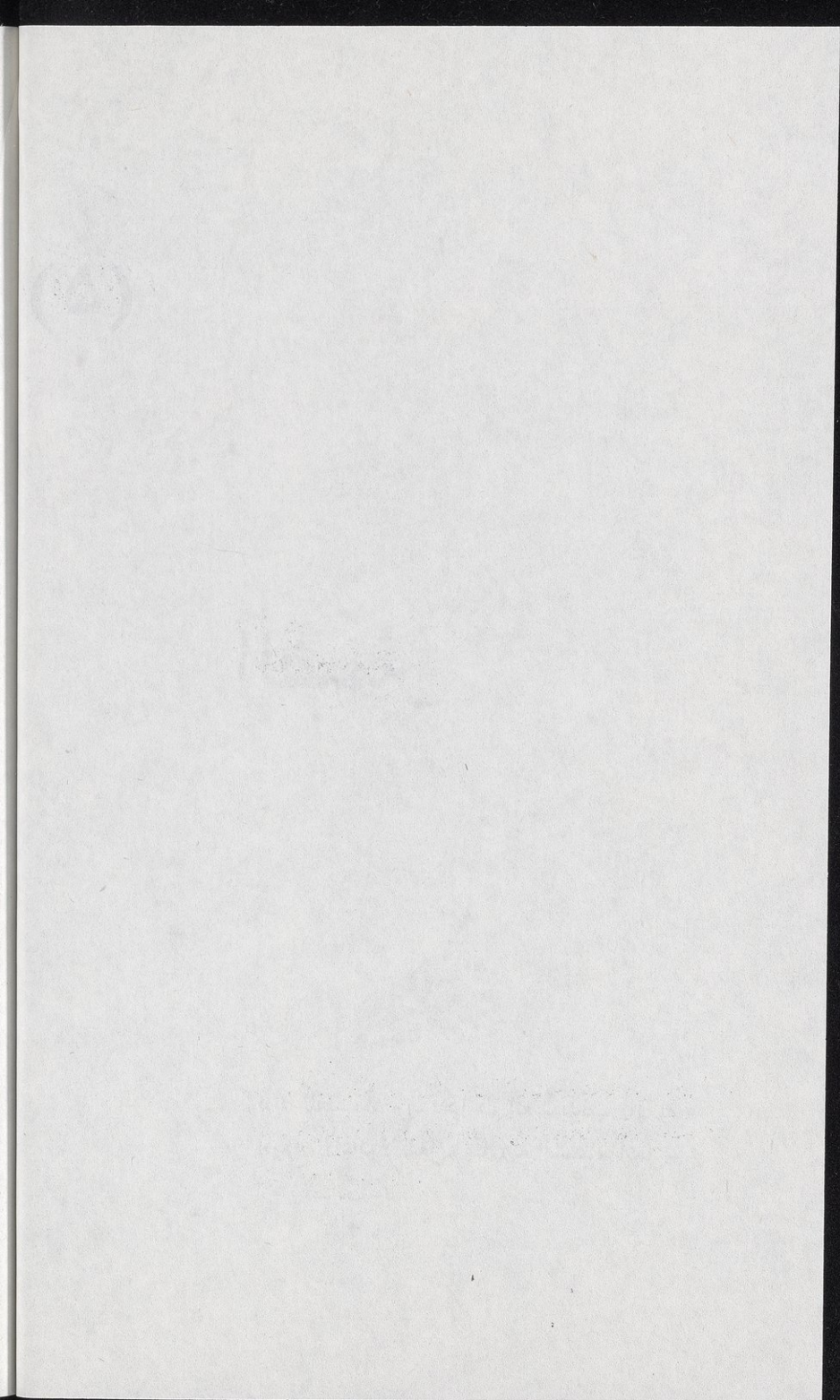
(٢) جامع السعادات ص ٧١ .

فاذا حصلت له الاستقامة واستقل بالحكومة على القوى أنتج من جهته الأولى حسن الفكر وجودة الذكر، وثمر من ناحيته الثانية الفطنة وحسن الرأي، واجتماع هذه الثمرات ينتج له حسن الفهم وجودة الحفظ. وترى الإمام الصادق (ع) يتدرج مع هذا الاصطلاح ويقرر هذه النتائج في حديثه المتقدم.

(٥)

## الضمير

«ان للقلب أذنين، فاذا هم العبد بذنب قال له»  
«روح الايمان لا تفعل، وقال له الشيطان افعل»  
الامام الصادق(ع)





(٥)

### الضمير

يتألف الانسان من جزئين متباينين ، بها يتم تركيبه ومنها تتكون قواه وعناصره ، و عنهما تصدر أفعاله و أفكاره و بمجموعهما يدرك قسطه من الحياة و ينال حظه من الرقي و الكمال و هذان الجزءان هما النفس و الجسد .  
جزءان متباعدان ائتلفا فكانا مزيجاً عجبياً يحمل خواص الطبيعة و آثار ماورا الطبيعة ، و اصبحا بعد ائتلافها شيئاً واحداً يدرك بادراك واحد .  
والذي يهمننا ان نجد الاتصال قد أفاد هذين الجزئين قدرة كاملة لا يتمتعان بنظيرها لو كانا منفردين .

لنفس أهداف لا تصل اليها اذا لم تتصل بالجسد ، و للجسد غايات لا يبلغها إلا بمعونة النفس ، و يقول علماء الاخلاق : ان الاهداف التي يتوجه اليها في سلوكه و معاملاته قد تكون من مختصات الجسد ، و يمثلون لذلك بالذات الزائفة التي تحصل من الشهوات البهيمية ، و قد تكون من مختصات النفس و يمثلون لها بالكمالات النفسية التي تحصل للانسان من اكتساب

العلوم والذات العقلية التي تنشأ من اكتشاف الحفيات من الاشياء، وقد تكون مما يشترك فيه كل واحد من النفس والجسد على السواء او على التفاضل، ولكل واحد من هذه الاقسام أمثلة يذكرونها في كتبهم، وقياس الالم في ذلك قياس اللذة.

والانسان انسان بنفسه لا بجسده لان جميع افراد الحيوان تشاركه في هذه الناحية، و محافظته على انسانيته بمقدار محافظته على معنويات نفسه، و سموه في انسانيته بمقدار حرصه على انماء مداركه و استثمار مواهبه.

خلق الجسد ليكون آلة مسلوبة الارادة بيد النفس، توجهه حيث تشاء و تصرفه كيف تريد، و استقامة الانسان في شيمه و اخلاقه، و رقيه في درجات الانسانية لا يحصل الا بذلك فان عدالة العقل الحاكم على النفس والمدبر لسلوكمها تمتع النفس عن الاستثثار بحقوق الجسد او اعطائه اكثر مما يستحق.

اما اذا انعكس الامر واصبحت النفس آلة مسخرة للجسد يستعبد لها لتحقيق ميوله و نبيل اوطاره، فهناك الشقاء الدائم والخسران العظيم لان العقل اصبح معزول الحكومة مردود الرأي.

والفلاسفة المتقدمون يقولون في صفة النفس حين يريدون تعريفها: «هي جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته» و يقولون: ان هذا الجوهر الملكوتي الواحد يظهر بمجالي متعددة متفاوتة، و بالنظر الى كل واحد من هذه المجالي يطلقون عليه اسماً خاصاً فيسمونه عقلاً من حيث انه يدرك الامور الكلية المعقولة، و يسمونه روحاً لان به حياة الجسد و نموه، و يسمونه قلباً لانه يتقلب بما يخطر فيه من الخواطر. والامام الصادق عليه السلام قد يجري مع هذا الاصطلاح الى حد قريب فيقول: «اجعل قلبك قرينا برا او ولدا و اصلا»<sup>١</sup> فيسمى النفس قلباً لما فيه من الخواطر ثم يجعله قرينا برا يجب اتباع

(١) الكافي الحديث الاول باب نواذر الاستدراج.

نصحه في الخواطر الحسنة وولدا بارا يحب ارشاده . عند الخواطر السيئة . وقد يجري مع الاصطلاح الى حد ابعد من ذلك فيقول : « من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه »<sup>١</sup> .

اما هذه الخاطرات التي تحدث في النفس والتي باعتبارها سماها الخلقبون قلبا فهي افكار تعترض النفس اذا توجهت الى عمل من الاعمال تحثها على ايجاده او تحذرهما من فعله فاذا كانت هذه الخاطرة تدعو الى الخير او تحذر عن الشر سميت « الهاماً » وان كانت على العكس من ذلك سميت « وسوسة » .

و مصدر هذه الالهام قوة خفية في النفس يشعر بها الانسان جليا عند مباشرة عمل يرضي به عاطفته او عقله أو عمل يغضبها، والمتأخرون من علماء الاخلاق يسمون هذه القوة « بالوجدان » و « الضمير » و يصفها بعض ارباب الفلسفة الحديثة « بصوت الله في الانسان » و يسميها الامام الصادق عليه السلام روح الايمان بقوله : « ان للقلب اذنين روح الايمان يساره بالخير، والشيطان يساره بالشر، فايهما ظهر على صاحبه غلبه »<sup>٢</sup> و سأل بعض اصحابه عن روح الايمان هذا فقال : « اما رأيت الانسان يهم بالشيء فيعرض بنفسه الشيء يزجره عن ذلك وينهاه قال نعم ، قال : هو ذلك »<sup>٣</sup> .

الضمير واعظ القلب كما سماه في حديثه السابق ، و هو روح الايمان كما يسميه في قوله هذا و هو احدى الغرائز التي نشأت مع الانسان منذ يومه الاول و تدرجت معه في عصوره ، و تطورت معه في تطور احواله و غرائزه .

و يدلنا على هذا انا نجد الضمير لا يختص بأمة دون أمة أخرى ، فالضمير يوجد عند الامم المتوحشة التي لم تخضع لقانون ولم تعترف بنظام كما

(١) امالي الصدوق ص ٦٥ .

(٢) الجزء الخامس عشر من البحار باب روح الايمان .

(٣) المصدر المتقدم .

يوجد بين الامم الراقية التي تشرع القوانين وتعترف بالانظمة، وبذرة الضمير توجد عند الصبي الناشئ وعند الطفل الدارج ولعل جرثومة الضمير توجد في قسم من الحيوانات العجباء على ما يقوله بعض علماء الحيوان. وللضمير قوتان متقابلتان يشعر الانسان بوجودهما قبل العمل وبعده.

قد يتوجه الانسان الى عمل يرضي به عاطفته مثلا ولكنه يغضب عقله فيرى نفسه حينذاك بين قوتين متقابلتين تحته احدهما على العمل وتحذره الاخرى منه، وتفاضل هاتان القوتان بمقدار ما في الانسان من ميل الى الخير او الى الشر، وبمقدار ماله من التمسك بالصفات الحسنة او القبيحة، وقد تكون القوتان متكافئتين اذا تساوت ميوله.

فاذا ابتدأ في انجاز العمل استمرت القوة الموافقة على الحث والتشجيع، وخفت صوت القوة المعارضة ولكن سكوتها يكون الى حين، و اذا اتم العمل شعر بتأنيب شديد من الناحية المكبوتة وخفت صوت الناحية المنتصرة.

واما اذا ترك ذلك العمل ارضاء لعقله واجابة لوجدانه فانه يشعر بتأنيب قليل من ناحية العاطفة المكبوتة وبارتياع عظيم من الناحية الثانية ولذلك فلا يمكننا ان نصدق ان الضمير هو العقل العملي كما يراه الفيلسوف الالماني كانت<sup>١</sup> لان العقل العملي خاضع لحكومة العقل النظري، ووظيفته ترتيب الاعمال على درجاتها، واعطاء كل عمل منها مكانه الذي يليق به واذن فالعقل العملي يدعو الى الخير فقط، فلا يسعنا ان نجعله تفسيرا للضمير.

والنظرات المتقدمة توضح لنا ان (الضمير) شؤونا واثارا. فآثره قبل العمل حث او تحذير، و بعد حصول العمل ارتياح او تأنيب ومعنى هذا ان صوت هذه القوة لا يختص في حال حصول الرغبة او في حالة انقمامها، و

(١) الخلق الكامل محمد احمد جاد المولى ص ٣١٤ من الجزء الثاني.

يقول بعضهم: الوجدان والوسواس صوت رغبات مقموعة<sup>١</sup>، ولم يظهر لنا سر هذه الصفة التي يذكرها، على انا نعترف بأن صوت الوجدان يكون أشد ظهوراً عند انقماص الرغبة التي يدعو اليها.

وانكر جماعة من الخلقين كون الضمير غريزة من الغرائز، وقالوا هو قوة يكتسبها الانسان اكتساباً، وللتجربة والاختبار والتقاليد والعادات اثر كبير في تكوينه، ويدلون على مذهبهم هذا بوجوه اهمها ما يأتي:

١- ان القوانين والانظمة الوضعية هي الحافظة للضمير من التداعي والانهيار، ودليل هذا اننا لورفعنا سلطان القوانين الخلقية والاجتماعية والدينية عن اية امة من الامم لوجدنا ان الحال فيها ينقلب رأساً على عقب، وان أسس الضمائر الخلقية فيها تتداعى وتبهار، وهذا يدلنا على ان الضمير تابع لهذه الانظمة يوجد بوجودها ويفنى بفنائها.

وجوابه ان الضمير قوة بسيطة تتقوى بالتمرين، والحافظة على الواجبات واتباع الانظمة، حتى تسيطر على جميع القوى: وتحكم على الغرائز، وتضعف بالمخالفة والاهمال حتى يخفت الصوت ويموت الضمير، ونعني بموت الضمير انعدام اثر هذه القوة لا انعدام وجودها فان الضمير اذا تابعت عليه الصدمات والمخالفات يخفت صوته، فلا يبعث الى فعل خير، ولا يحذر من عمل شر، وهذا ما نسميه بموت الضمير اما جرثومة هذه القوة فلا تزال باقية في الانسان مادام باقيا في الحياة، ويمكن أن تعود الى حيز العمل يوماً ما اذا ما تعاهدها صاحبها بالتمرين والتقوية مرة اخرى.

٢- نجد الناس مختلفين في ضمائرهم، فالشيء الواحد يكون حسناً عند أمة من الامم وهو بنفسه يعد قبيحاً عند أمة اخرى. وهذا يدلنا على ان السبب هو الاختلاف في العادات والتقاليد والازمنة وما اشبهها.

وجوابه ان الضمير قوة تحت على الخير وتحذر عن الشر، اما تمييز

(١) قول ينقله الاستاذ احمد امين في هامش اخلاقه.

الخير من الشر، والمقياس الذي يقاس به العمل ليعلم انه خير أو شر فهو شيء آخر وراء الضمير، وليس الضمير معصوما في حكمه فهو يحث الانسان على ما يعتقد انه خير ويحذره عما يعتقد أنه شر، ثم لا يحاسبه عن مصدر هذا الاعتقاد فقد يكون مصدره مادة سخيفة او تقليدا باطلا.

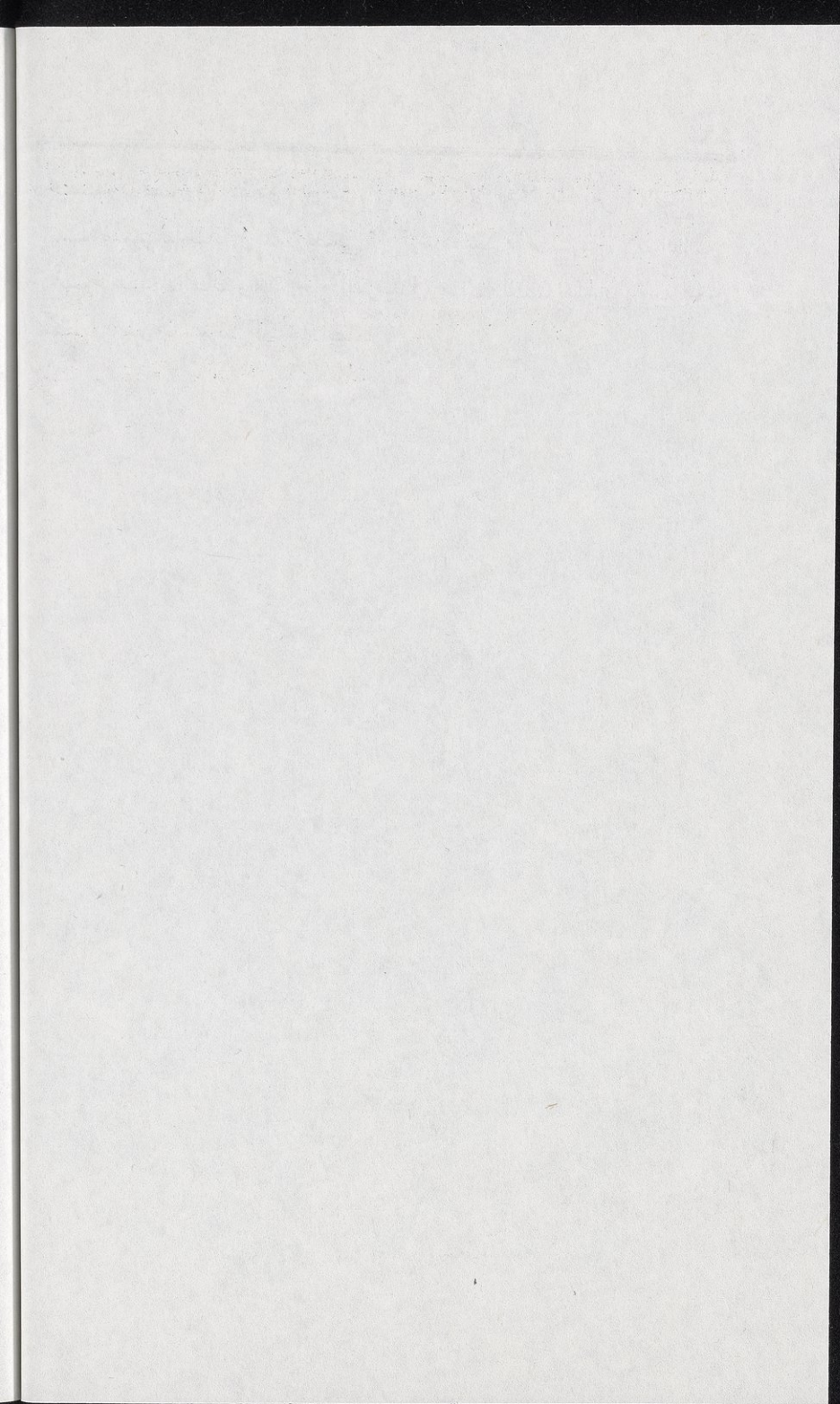
و حكم الوجدان يتعدى اعمال الشخص نفسه الى اعمال الغير فهو يكبر كل عمل يعتقد انه خير، ويحتقر كل عمل يعتقد انه شر، وان كان من اعمال الغير. و ترحيب الضمير بذلك العمل او تحذيره عنه يتفاوت بحسب ما يعتقد فيه من جهات الخير او الشر، و بحسب شدة ذلك الاعتقاد وضعفه و بمقدار تمسك الشخص بالمثل الاعلى في اخلاقه، و لذلك نرى التفاوت العظيم بين الناس في ضمائرهم.

و اذا كان الانسان الكامل هو الذي يستمد رشده من العقل، و اذا كانت قوة الوجدان بمقدار محافظة الانسان على عمل الخير في سلوكه و معاملاتة كانت نتيجة هذا ان الوجدان الكامل والضمير عند هذه الطبقة من الناس قوة واحدة وليس لها الا صوت واحد فهو لا يعرف الا الحق و هو لا يأمر الا بالخير فان الصوت الآخر من هذه الغريزة قد أماته كبت الميول و تحديد الشهوات.

والوجدان هو المبدأ الاول للتوبة والتكفير عن الخطايا لان الضمير اذا شعر بالخطيئة، و تبين عظم الذنب وجه الى النفس لوادع من التائب و قوارص من العتاب والتوبيخ، و قد يتأثر الانسان من ذلك فيندم و هذا الندم هو التوبة في مرحلتها الاولى. و كم للضمير الفاضل من يدبض على الانسان في تهذيب نفسه، و الاخذ بيده الى سبيل النجاح و تسديده في ما يعمل و ما يقول، و يعلق الخلقيون المتأخرون على الضمير اشياء كثيرة يتراعى بها العد، و يطول فيها الكلام.

والضمير محترم عند الانسان فقد يرتكب الرجل اخطاء وجدانية و

مصدرها قصور في التفكير، او تسرع في الحكم الا انه لا يقبل من الناصح ان يتهم ضميره بالخيانة وقد لا يصغي الى ارشاده بعد هذه التهمة، لان الضمير محترم عند الانسان و من الحزم للمرشد في امثال ذلك ان يدلّه على وجه الخير فقط من غير ان يتعرض لكرامة الضمير.





(٦)

## الفضائل الفرعية

«من ملك نفسه اذا رغب واذا رهب، واذا اشتهى»  
«واذا غضب. حرم الله جسده على النار»

الامام الصادق(ع)

(٥)

# تبرعات الخفاء

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي جعلنا من عباده الخائفين

ن  
ع  
ال  
الع  
لم  
في  
الق  
لو  
ظ

(٦)

## الفضائل الفرعية

علمنا ان الخلق الكريم من كل قوة هو التوسط فيها، وان الافراط في تلك القوة والتفريط فيها رذيلتان خلقيتان تعملان على هدم تلك الفضيلة، و عاملان نفسيان يحاولان سد تلك الباب الموصل الى الخير و المشير الى طريق السعادة، ولا يستطيع الانسان ان يستمر في خلقه الكريم الا بمحاربة هذين العدوين اللدودين و اشدهما تاثيراً عليه هو أقربهما الى نزعاته و اكثرهما موافقة لميوله، و الانسان في الكثير من افراده ميال في نزعاته الى احد الجانبين، و هو في الاكثر من هذا الكثير يميل الى جانب الافراط و الزيادة.

اما المعتدلون بغرائزهم، المتوازنون في نزعاتهم، فهم قليل و اقل من القليل.

ولعل هذا و امثاله يكشف لنا حكمة مستورة في بعض الاحاديث الواردة عن الائمة من اهل البيت (ع) في الحث على الفضائل التي تقرب ظواهرها التفريط، فهي تحت على الزهد و القناعة لتقابل الافراط في بهيمية

الشهوة، وتدعو الى الحلم والرفق لتحد من وحشية الغضب، وكم لامناء الشرع في هذا وامثاله من كلمة جامعة.

وقد عرفنا ان الاعتدال الخلقى يقوم بملكات اربع يعدها علماء الاخلاق اصولاً للأخلاق الفاضلة ورؤوساً للملكات الصحيحة الفرعية، فن الجدير ان نشير الى بعض خواص هذه الاصول، ونستعرض جانباً من فروعها لنلم بعض الامام بآراء الامام الصادق (ع) في ذلك.

### الحكمة

التوازن العادل في القوة الفكرية هو الحكمة، والرذيلة التي تقابل الحكمة من جانب التفريط هي الحمق والبلادة ويعنون بها تعطيل القوة الفكرية عن العمل، وكبت مالها من مواهب واستعداد، والخنيسة التي تضادها من جانب الافراط هي المكر والدهاء ويريدون منه التجاوز بالفكر عن حدود البرهان الصحيح، واستخدام قوة العقل في ما وراء الحق فقد تثبت نتائج ينكرها الحس وقد تنفي اشياء تثبتها البدهة.

ولست ارى ان لفظ المكر والدهاء يدلان على هذا المعنى لانها بمعنى الاحتيال والخداع، وهو شي، آخر وراء الحكمة الباطلة التي يقصدها هؤلاء المفسرون، اما الدهاء بمعنى جودة الرأي فهو يقرب من معنى الحكمة، واذن فلنسم هذه النقيصة الخلقية (بالحكمة الباطلة) كما يسميها علماء الاخلاق.

ونحن اذا فحصنا الفضيلة العقلية (الحكمة) وجدناها تتألف من عنصرين اساسيين لا غنى لهما عن احدهما:

قوة فكرية في طريقها الى التوازن،

وعلم يرشد هذه القوة الى طريق الاعتدال.

ليس التوازن في القوة الفكرية من الاشياء التي تمنحها المصادفة، و

يكونها الاتفاق، وليس بالامر السهل الذي تكفي في حصوله للانسان خبرة قليلة و تجربة نادرة، لانه توازن في كل ما يعتقد، وتوازن في كل ما يقول، و توازن في كل ما يعمل، و أنى للقوة الفكرية بهذه الاستقامة التامة اذا هي لم تستعن بارشاد العلم الصحيح، و أتى للعقل بمفرده ان يبصر هداه في الطريق الشائك والمسلك الملتوي.

كلنا نتمنى التوازن العادل في طبائعنا والاستقامة التامة في سلوكنا، واي افراد البشر لا يتمنى الكمال لنفسه ولكن الجهل يقف بنا دون الحد، و ميول النفس تبعدنا عن الغاية، والعقل هو القوة الوحيدة التي يشيع فيها جانب التفريط بين أفراد الانسان، و ذلك من تأثير الجهل، فالجهل اول شيء يحاربه علم الاخلاق، لانه اول خطر يصطدم به الكمال الانساني، و أول انخطاط تقع فيه النفس البشرية، و أول مجرم لها على ارتكاب الرذيلة، بل هو اول خطيئة و آخر جريمة.

يرتكب الجاهل اخطاء خلقية تعود بالضرر على نفسه و قد يعود ضررها على امته و شعبه أيضاً، و عذره في ذلك أنه جاهل، و اذا كان الفقيه لا يعد الجهل عذراً في مخالفة النظام الشرعي، فان الخلق اجدر ان لا يقبل ذلك العذر لان الفقه اسلس قياداً، و الفقيه اكثر تسامحاً اما العالم الخلقى فانه يطبق نظامه بعنف، و يقرر نتائجه بدقة، ولا يجد في المخالفة عذراً لمعتذر، ولا سبباً اذا كان ذلك العذر احد المحظورات الخلقية كالجهل.

و اذن فمن الرشد أن يكون العلم اول شيء يفرضه علم الاخلاق، و من الحكمة ان يقول النبي العربي (ص) (طلب العلم فريضة على كل مسلم) و أن يقول وصيه الامام الصادق (ع): (إني لست احب ان ارى الشاب منكم إلا غاديا في حالين؛ اما عالماً أو متعلماً، فان لم يفعل فرط، فان فرط ضيع، فان ضيع أثم، فان أثم سكن النار. والذي بعث محمداً بالحق).

الشباب دور القوة والعزيمة، و عهد الطموح والرغبة، و زمان الجد

والعمل والشباب دور تكامل القوى، وتوثب النزعات، وبعد ذلك كله فالشباب هو الدور الأول الذي يتسلم فيه الانسان قيادة نفسه، ويختص به تهذيب خلقه و تثقيف ملكاته، ولعل المرئي قد أساء الصنع بتربيته فأعجبد في الطريق وأتهمت الغاية، و لعل البيئة أعدت غرائزه لما لا يحمد فأضافت الى النقص نقصا، وجمعت الى النار حطبا، وللنفس في ظل الشباب اماني واحلام، وللشباب دافع من الشهوة ومحفز من الطموح وقائد من العزيمة، والقوة كما قيل مبدأ شرور أو مصدر خيرات.

القوة اداة عاملة تثمر الخير وتنتج السعادة اذا دبرتها الحكمة، و قادتها المعرفة، وهي على الضد من ذلك اذا قادها الجهل، و حركتها العاطفة واستخدمتها الميول، أما العقل الذي عهد اليه باتباعه فهو لا يزال في عهد فتوة جديدة، و في ابتداء سياسة مستحدثة، وهو في هذه الحكومة الفتية قليل الانصار والجند، قليل التجربة والحنكة، وضعف الحاكم عامل قوي يتخذ منه الطائش مبرراً لعمله، وينتهزه القوي فرصة لتحكماته، فكيف تكون نتيجة هذا الشاب المسكين، وما الذي ينتهي اليه امره.

سيسقط في اخلاقه ثم يسقط، وسيخسر اعز شيء عليه في الحياة من حيث لا يشعر بألم هذه الخسارة لأنه يجمل وبالأحرى لانه لا يحس.

والحل الوحيد لهذه المشكلة أن يجعل لعقل ذلك الشاب من العلم الصحيح مسعداً؛ ومن الحكمة الصالحة معيناً ليصبح قويا بعد ضعف، و كثيراً بعد قلة، و عاملا بعد خمود، على ان التجربة والوجدان ومقررات علم النفس تشهد بأن التعلم في السن الباكر ابلغ في التأثير و اعظم في الاستفادة. و يقول الامام الصادق (ع) ايضاً: (لا يفلق من لا يعقل ولا يعقل من لا يعلم و بين المرء والحكمة نعمة العالم والجاهل شقي بينهما)<sup>١</sup> وهذه الكلمة على قصرها تتضمن نتيجة البحث و صفوة القول في المورد، و يقول

(١) الكافي الحديث ٢٩ كتاب العقل والجهل.

ايضاً: (لوددت ان اصحابنا ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)<sup>١</sup>  
 ارأيت كيف يفرض العلم على اصحابه فرضاً، ثم يتمنى ان يستعمل القوة في  
 تطبيق ذلك الفرض، ولكن العلم الذي يفرضه على اصحابه هو العلم الذي  
 يأخذ بيد الانسان الى السعادة، ويرقي به الى الكمال النفساني، ويقول في  
 حديث آخر: (كثرة النظر في الحكمة تفتح العقل)<sup>٢</sup>.

شجرة كريمة المنبت؛ طيبة الانتاج، تمت جذورها وزكت  
 تربتها، ولكنها لا تأتي بالثمر الطيب اذا لم تسعف باللقاح المناسب؛ تلك  
 الشجرة هي العقل؛ وثمارها هي الاخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، اما  
 لقاحها فهو كثرة النظر في الحكمة؛ هكذا يقول الامام الصادق (ع) في هذا  
 الحديث، وهكذا يكون العلم هو اليد الاولى في تأسيس الفضيلة الاولى  
 والساعد القوي الذي يمهّد قاعدة الخلق الكامل.

ومن الجهل ما يسمونه بالجهل المركب وهو جهل يشبه العلم في  
 الصورة وشؤمه على الانسان اشد من الجهل البسيط، لانه مؤلف من جهلين  
 والجهل رذيلة كبرى اذا كان مفرداً فكيف اذا كان مكرراً والجاهل المركب  
 عالم في اعتقاده وعمله صحيح في رأيه ولذلك فهو يرتكب الاخطاء ويعمل  
 القبائح ولا يسمع نصح ناصح ولا يصدّه عدل عادل.

ليقل القائلون ماشاؤوا وليخطئوه في عمله اذا ارادوا، وماذا عليه  
 من نصح الناصحين وعدل العاذلين اذا هو ارضى عقيدته، وأقع ضميره،  
 انهم هم المخطئون فيما يقولون.

بهذا يعلل الجاهل المركب اعماله وأخطائه من حيث لا يعلم ان على  
 عينيه منظاراً يلون له الحقائق وعدسة تقلب له الصورة، من أين له بالمرشد الخبير  
 الذي يعرفه ان هذا اللون الذي يراه هو للمنظار لا للحقيقة، وان الانقلاب انما

(١) الكافي الحديث ٨ باب وجوب طلب العلم.

(٢) تحف العقول ص ٨٩.

هو في العدسة لا في الصورة، لينكشف له الحق على صورته او- على الاقل -  
ليعلم انه لا يعلم .

ويحدثون عن احد الخبثاء انه اشترى حماراً متأنقاً لا يأكل غير  
النبات الطري وان بلغ به الجهد وامض به الجوع، فأعيب صاحبه منه ذلك لانه  
لا يجيد النبات الطري في كل وقت فاحتال على الحمار وألبسه منظاراً كبيراً  
اخضر ثم قدم له مقداراً من التبن المبلول، فشرع الحمار يأكل واخذ صاحبه  
يضحك .

ليأكل الحمار من النبات الاخضر الطري في عقيدته وماذا عليه  
اذا رآه الآخرون تبناً اصفر مادام هو لا يرى ذلك . انهم واهمون وانهم  
مخطئون .

لا يلام الانسان اذا ارتكب عملاً فاسداً وهو يعتقد بانه عمل صالح  
اذا هو لم يقصر في البحث، ولكن هذا لا يكفي لتثقيف نفسه وتهذيب  
ملكاته، واذن فالعلم الذي يكون مصدراً للاخلاق الفاضلة هو الذي يوافق  
الواقع المعلوم، هو اليقين واليقين فقط .

نعم هو اليقين (الذى يوصل العبد الى كل حال سني ومقام  
عجيب) كما يقول الامام الصادق (ع) وهو النور الذي قال فيه: (فان كان  
تأييد عقله من النور كان عالماً وحافظاً) وهو الحكمة التي يقول فيها: (كثرة  
النظر في الحكمة تلقح العقل)<sup>١</sup> .

ومن آثار هذا اليقين اطمئنان نفس الانسان وخلوده الى السكون،  
والرضا في كل ما يعطى وفي كل ما يمنع، فان: (من صحة يقين المرء المسلم ان  
لا يرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم بما لم يؤته الله)<sup>٢</sup> .

(١) اشرنا الي مصادر هذه الاحاديث في الابحاث السابقة .

(٢) الكافي الحديث الثاني باب فضل اليقين .



## العدل

قوة العمل مبدأ كل سلوك ومصدر كل خلق وقد تكرر في الفصول السابقة ان العدل هو مشايعة قوة العمل لقوة العقل و ان العادل هو الذي يتبع ارشاد العقل في كل ما يقول وفي كل ما يعمل .

وقد علمنا ان قوة العمل هذه لا تختص بها ملكة معينة من الاخلاق ولكنها تكون جميع الملكات التي تنسب الى القوى الاخرى حتى سلوك العقل نفسه، و ان التوازن في قوة العمل توازن في جميع الملكات والانحراف فيها انحراف في سائر الاخلاق، والامام الصادق (ع) يقدر هذه النتيجة بعينها حين يسأل عن صفة العدل في الانسان فيقول: (اذا غض طرفه عن المحارم ولسانه عن المآثم وكفه عن المظالم)<sup>١</sup>. لا يكون الانسان عادلا حتى يخضع الشهوة لحكم العقل فيغض طرفه عن المحارم، ويلجم الغضب بلجام الحكمة فتترفع نفسه عن المظالم، وصفة العدل هذه هي التعفف بمعناه العام، وضبط النفس الذي يقول فيه: (من ملك نفسه اذا رغب و اذا رهب و اذا اشتهى و اذا غضب حرم الله جسده على النار)<sup>٢</sup> واكثر اخلاقيات الامام الصادق (ع) تشير الى هذا المعنى ولو من ناحية خفية .

لكل واحدة من قوى النفس و غرائزها حقوق يجب أن توفى إليها كاملة غير منقوصة، و لكل منها ميول شاذة يجب أن يضرب من دونها ألف حجاب، و ضبط النفس هو تعادل هذه القوى في السلوك و تساويها في الحقوق فتأخذ كل قوة ما يجب لها و تمنع عما يحظر عليها .

وأكثر الملكات المعتدلة - إن لم نقل جميعها - إنما تكون بتعاون جميع

(١) تحف العقول ص ٨٩ .

(٢) أمالي الصدوق ص ١٩٨ .

القوى النفسانية. فالتوازن في قوة الشهوة مثلاً يفتقر إلى قوة العمل في تكوينه، و يحتاج إلى قوة الفكر في تحديده وتميز غايته، وإلى الشجاعة في الثبات عليه و تحمل الآلام في سبيل الحصول عليه، العفة كينت الميول المتطرفة من قوة الشهوة، و تقع الرغبات الشاذة منها إلا أنها لا تحصل للشخص إذا لم يكن له من الشجاعة ما يتحمل به ألم ذلك الكبت، ومن الثبات وقوة الإرادة ما يستمر به على تلك الاستقامة، فضبط النفس في الأكثر مزيج من قوى متعادلة في الحقوق، متفاضلة في التأثير، و بعض هذه القوى ايجابي و بعضها سلبي و انما قلنا في الأكثر لأن بعض الملكات العقلية لا يحتاج إلى قوة الشهوة مثلاً.

بقي علينا أن نعرف معنى هذا الاختصاص الذي يذكره علماء الأخلاق، و يصرون عليه كثيراً، فان الاستقامة في الخلق إذا كانت لا تحصل إلا بمساعدة أكثر من قوة واحدة فلماذا يختص بعض الفروع ببعض القوى؟ ولماذا تعد العفة من ملكات قوة الشهوة فقط؟ و يكون الحلم من فروع قوة الغضب خاصة؟

والسر في ذلك أن الملكة الخلقية هي تلك القوة التي تنسب إليها بعد أن يدخل عليها التهذيب، فالعفة شهوة مهذبة، والشجاعة غضب متوازن، والحكمة فكر مستقيم.

ومن هذا التعاون النفساني المتقدم يظهر لنا معنى قول الامام الصادق (ع) في بعض وصاياه لأصحابه: (عليكم بالورع و صدق الحديث و أداء الأمانة و عفة البطن و الفرج تكونوا معنا في الرفيق الأعلى)<sup>١</sup>. ملكات خمس يوصي الامام اصحابه بالمحافظة عليها ليكونوا معه في الرفيق الأعلى من الجنة، و إذا نظرنا إلى هذه الملكات رأيناها تنتهي إلى قوة واحدة، او الى قوتين لا غير، فان الورع ينتهي الى الشجاعة إذا كان ورعاً عن نزغات الغضب، و إلى العفة إذا كان ورعاً عن ميول الشهوة، و صدق الحديث أيضاً

(١) الجزء الخامس عشر من البحار باب الورع و اجتناب الشبهة.

قد ينتهي الى هذه وقد ينتهي الى تلك ؛ أما الملكات الثلاث الباقية فهي من فروع العفة لاغير، ولكن الامام يضمن لأصحابه أن يكونوا معه في الفريق الأعلى إذا اعتدلوا في هذه الملكات الخمس .

هو توازن في قوة الشهوة ولكنه يلازم اعتدالا في قوة الغضب ، واستقامة في قوة الفكر، يستحيل على المتهور ان يكون ورعا، وعلى الجبان ان يلتزم صدق الحديث . اما العقل - وهو المرشد الى ذلك التوازن - فلا بد و ان يكون معتدلا ايضا . على ان الورع الذي يتدئ به هذه الكلمة قريب المعنى من التعفف وضبط النفس والاخلاق التي يعددها ملكات عامة تظهر آثارها في جميع الاعمال والاقوال فاذا استقامت هي كان الانسان مستقيما في اقواله واعماله ، ومن اولى من الانسان المستقيم بالفريق الاعلى .

العدل وضع جميع القوى تحت نفوذ العقل فيعطي كل واحدة من هذه القوى حقوقها كاملة فاذا عمل الانسان ذلك مع الناس الآخرين سميت هذه الصفة منه انصافا وعدلا بمعناه الخاص .

وهذا العدل هو اساس الملك العادل ومحور المدينة الفاضلة والمجتمع المثالي ، وهو قد ينتهي الى العفة وقد يكون من الشجاعة ويقابله من جانب الافراط الجور على الغير والتعدى على حقوقه ، ومن جانب التفريط اهمال الحقوق المحترمة للنفس و كلاهما جرثومة لكثير من الاخلاق الفاسدة .

والعدل يكون صفة للفرد ويكون صفة للمجتمع .

### العدل الفردي

للعدل الذي يوصف به الفرد مرتبتان تظهر احدهما في سلوك الشخص مع الناس الآخرين ومعاملاته معهم ، فاذا اخذ الانسان حقه كاملا و أعطى الغير حقه موفوراً سمي عند الخلقين عادلا ومنصفا ، وفي

هذه الصفة يقول الامام الصادق (ع): (سيد الاعمال ثلاثة: انصاف الناس من نفسك حتى لا ترضي بشيء لنفسك الا رضيت لهم بمثله<sup>١</sup>).  
 ومن الناس من يتشام الى حد بعيد من التشاؤم فيعد العدل في الانسان مستحيلا أو هوشياً يشبه المستحيل، فالانسان وحش متمدين.  
 والظلم من شيم النفوس، فان تجدد  
 ويزهد بعض هؤلاء المتشائمين الى اكثر من هذا، فيقولون: (الظلم سر كامن في الطبيعة، فالنبات يعدو قويه على ضعيفه والحيوان يفتك كبيره بصغيره والانسان يستبد حاكمه بمحكومه) وهذه الفكرة وليدة عن القول بأن الانسان شرير بالطبع والفلاسفة منقسمون حول هذا الرأي، والشرع يؤيد المذهب المعتدل في ذلك، ويجد الباحث المتتبع شواهد كثيرة على ذلك من اقوال الامام الصادق (ع).

لا ينكر المتشروعون شيوع الظلم بين افراد الانسان، ولكنهم يقولون: مصدر ذلك هو اهمال الغرائز النفسانية حتى تستبد بالحكم، واعطاء النفس قيادها لتسير مع الاهواء بلا رقيب ولا حسيب، أما نفس الانسان و غرائزه فهي مهياة للمسير في طرق الخير وطرق الشر حسب ما يرتضيه له سلوكه وترسمه له ارادته واختياره، ولو تعاهد الانسان غرائزه بالتهذيب والاصلاح لسارت نفسه على الهدى، وحققت له العدل بجميع معانيه، و لعل الحكيم العربي لا يريد اكثر من ذلك في بيته المتقدم.

والمرتبة الثانية من العدل الفردي تظهر في الفصل بين المتخاصمين باعطاء الحق لصاحب الحق من غير حيف ولا تحيز، وعدالة القاضي هذه عند الامام الصادق (ع) مظهر من مظاهر العدل النفساني لانه يقول: «من انصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره»<sup>٢</sup> وهذا أفضل ما يوصف به

(١) أصول الكافي الحديث الثالث من باب الانصاف والعدل.

(٢) الكافي الحديث ١٢ باب الانصاف والعدل.

الحاكم العادل والقاضى المصلح، وهل يتصور التحيز في الحاكم اذا أنصف الناس من نفسه، وهل ينسب اليه الحيف اذا كان أحب الناس اليه و ابغضهم عليه أمام عدله بمنزلة واحدة؟ و اذا علمنا ان العدل في المعاملة يلازم العدل الخلقى العام وجدنا أن العدل في رأي الامام (ع) سلسلة واحدة يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً لا تفكك بين أجزائه.

أقول: ان العدل في رأي الامام سلسلة واحدة، لأنه يشترط في الحاكم ان ينصف من نفسه قبل أن ينتصف امن غيره، ثم يقول ان الانصاف من النفس أشد الاعمال أو هو من أشدها، ويحدثنا عن ابيه النبي (ص): «من واسى الفقير وأنصف الناس من نفسه فذلك هو المؤمن حقاً»<sup>١</sup> وقد عرفنا فيما تقدم أن المؤمن حقاً هو الانسان الكامل الذي توازنت ملكاته واعتدلت اخلاقه، على أن اشتراط العدالة الشرعية في القاضى من المقررات الواضحة في المذهب الجعفري.

ثم هو يوضح ذلك ايضاحاً لا يقبل التشكيك حين يقول: «اتقوا الحكومة فان الحكومة انما هى للامام العالم بالقضاء العادل في المسلمين»<sup>٢</sup> الحكومة حق خاص للولي العام، العالم بالقضاء والعادل الاول في المسلمين، فلا تجوز لغير العالم بالقضاء، ولا لغير العادل من المسلمين، هكذا يقول الامام الصادق (ع) في صفة الحاكم، وهكذا يجب ان يكون.

الحاكم هو الممثل للعدل الديني أو المدني في الحقوق والدماء، ومن الممتنع أن يمثل العدل جائر، والحاكم أمين الامة على مقدراتها وأمين السلطة على رعاياها، ومن القبيح أن يؤتمن خائن، و اذا عجز الانسان أن ينتصف لنفسه من نفسه، فهو عن انصاف غيره من غيره أعجز، و اذا كانت نفسه أول رافض لحكمه فان غيره أولى برفضه وأحق برده، ولأمر ما حذرت

(١) الوسائل كتاب الجهاد الحديث ١٣ باب وجوب انصاف الناس.

(٢) الكافي الحديث الاول كتاب القضاء.

الشرعية الاسلامية ان يصدر القاضي حكمه وهو غاضب .

ويقول الامام الصادق (ع) «لسان القاضي وراء قلبه، فان كان له قال وان كان عليه امسك»<sup>١</sup> اجل ان لسان القاضي من وراء قلبه، والله من وراء قلبه ولسانه، وكم يهدم القاضي من صرح، وكم يقوض من دعامة بكلمة يقولها غافلاً او يصدرها غاضباً، وفي هذا الحديث تحذير شديد من التسرع والاستعجال، فان الحكم الجائر يكون على الحاكم قبل ان يكون على المحكوم. والحكم العادل يكون له قبل ان يكون للمنتصر.

اما الرشوة على الحكم...، اما بيع الضمير... والدين...، والقانون، واحترام النفس... ومقدرات الامة... واعتماد السلطة، اما سحق جميع المقدسات بالقدم بازاء ثمن حقير يسمى بالرشوة فهو الدناءة في الهمة، والحقارة في النفس، والحياة للمجتمع، وهو السحت المحرم في كل نظام وعلى لسان كل مشرع، وهو الكفر بالله العظيم في قول الامام الصادق (ع)<sup>٢</sup>.

وللعدل عدو جائر قد يلبس ثوب الصديق، وهو التحيز والممالة، فقد يجور المحاكم من حيث انه يظن العدل، ويظلم من حيث انه يعتقد الرحمة، ولحب القلبي والمظاهر الخارجية في ذلك اعظم الأثر.

من السهل على النفس اذا اجبت ان ترتكب ثم تعتذر، وان تفعل ثم تتعلل، لترضي الوجدان المكبوت، وتسلي العدل المرغم، وقد يجادع الضمير بتلك المعاذير فيقبل، ولكن العدل يسجلها صحيفة سوداء في ديوان الخائنين، والحاكم مسؤول عنها امام الله، وامام القانون الادبي .

ومن هذه الناحية نجد فرقاً كبيراً بين عدل القضاء وعدل المعاملة، فان الحب والميل القلبي قدينا فيان عدل القضاء لانها يشران التحيز

(١) الوسائل الحديث ٢ باب كراهة القضاء في حال الغضب .

(٢) الوسائل كتاب القضاء الحديث ٨ باب تحريم الرشوة .

والمحابة. اما العدل في المعاملة فانه يزكو على الحب، ويتكامل على الود لان المحب لا يجور على حبيبه، والصديق لا يظلم صديقه، وكثيراً ما بعث الحب على ايثار، ولعل هذا هو السر الاول في الحث على الحب الذي بالغت فيه الشريعة الاسلامية، وندب اليه امناء الوحي، والذي يقول فيه الامام الصادق (ع): «هل الايمان الا الحب»<sup>١</sup>، ويقول: «ان المسلمين يلنقيان فأفضلهما أشدهما حبا لصاحبه»<sup>٢</sup> وللحب والصدقة بحث سياقي.

### العدل الاجتماعي:

يولد الانسان وينمو، و يترعرع و يشب، و يتقلب في ادواره، و يتنقل في اطواره، و هو في جميع هذه الاحوال جزء من المجتمع الذي احاط به، و الانسان مدين للمجتمع في اكثر صفاته و شيمه، فهو الذي حذب عليه وليداً، و غذاه طفلاً و تعاهده بالتوجيه يافعاً، و هو الذي لقنه اللغة في طفولته و مهد له طريق التعلم في صباه، و هيأ له اسباب المعيشة في شبابه، و هو الذي علمه كيف يفكر و كيف يعمل، و كيف يأخذ، و كيف يعطي.

أكثر خصال الانسان عادات يكتسبها من بيئته، وأكثر غاياته ميول يرثها عن اسلافه، و أكثر علومه نتائج يقتبسها من مرشديه، و الاجتماع هو الصلة المتينة التي تجعل المجتمع كالجسم الواحد الحي، و تجعل الأفراد كالأعضاء لذلك الجسم، يقوم كل عضو منها بما يخصه من الاعمال التي تصلح المجتمع، و لذلك فالافراد مشتركون في الغاية و متمثلون في الحقوق و الواجبات، و رقي الفرد في شخصيته الاجتماعية بمقدار ما ينتج لهذا المجتمع من خير، و ما يؤدي اليه من ثمرة طيبة، و سقوطه فيها بمقدار ما يأتيه من شر و عمل فاسد، و قد يتماذى عمل السوء ببعض الافراد فيكون كالأعضاء

(١) الكافي الحديث ٥ باب الحب في الله.

(٢) الحديث ١٤ من المصدر المتقدم.

الموبوءة التي يجب فصلها عن الجسم وقاية له من شرها .  
 المجتمع جسم حي مدرك ، له حياته الخاصة ، وحياته نظامها الخاص ، وهويتصف بالتوازن والانحراف في سلوكه كما يتصف الفرد الواحد من الناس ، والنظام الاجتماعي العادل هو الذي يكفل للمجتمع ولافراده على السواء جميع الحقوق والواجبات من غير تعد ولا تقصير ، فاذا سار المجتمع على ذلك النظام العادل ، وطبقه على سلوكه و سلوك افراده سمي ذلك التوازن منه عدلا اجتماعياً .

العدل الاجتماعي ان تسيير الامة الى المثل الأعلى في الحياة وفي الاخلاق ، و ان تسعى ما امكنها السعي الى السعادة العامة والكمال المطلوب ، و ان تعدد للأفراد طرق الوصول الى الخير ، فتنشئ المؤسسات الكافلة لخير البلاد والحفاظة لخيراتها وتؤسس المعاهد الصالحة لاعداد الرجال و تثقيفهم بالثقافة الصحيحة ، و ان تتمسك بالانظمة الشرعية الموجبة لحفظ الحقوق وسلامة النفوس ، على أن تسيير في جميع ذلك وفق النظام الصحيح ، والحكمة الرشيدة التي يأمر بها العقل ، و يقرها الشرع .

و تعاون افراد الامة و تضامنهم أعظم موجب لتحقيق هذا العدل و ابلغ موثرفيه ، و يقول المتأخرون من الحلقيين إن المسؤول عن تحقيق هذه الغاية هي الحكومة التي تسيطر على الامة و تتحكم في مقدراتها . اما افراد الامة فيقعون في الدرجة الثانية من هذه المسؤولية ، و وظيفة الفرد هي مساعدة الحكومة في تحقيق الغاية بما يمكنه من الوسائل .

و هذا الرأي بين النقص لان العدل الاجتماعي هو التوازن التام في سلوك المجتمع و سلوك افراده ، و تعاون الجميع على العمل في سبيل الخير و اكتساب الصفات الخلقية المثلى ، و نيل السعادة العامة ، و هذا كله من مختصات المجتمع نفسه و مختصات افراده ، أما ما تقوم به الحكومة من انشاء المؤسسات والمعاهد الصالحة فهو احد مقدمات العدل الاجتماعي .



والامام الصادق (ع) يرى ان الوسيلة الوحيدة لانشاء هذا المجتمع المثالي هو اصلاح الافراد واعدادهم لان يكونوا اعضاء صالحين، وتزويد كل فرد منهم بما يجب عليه للاسرة وللمجتمع، فاذا صلح الفرد وتهدبت الاسرة صلحت الامة، وتوجهت الى سبيل الخير والسعادة، واذا احتاج المجتمع بعد ذلك الى شيء كان العدل الثابت للافراد دافعاً لهم الى التعاون والتضامن، وهذا هو المنهج الذي سلكه القرآن لاصلاح البشر وتهذيبهم.

يقول الامام (ع): (يحق للمسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمساواة لاهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما امركم الله رحماء بينكم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من امرهم)<sup>١</sup> ويقول: (ما قدست امة لم يؤخذ لضعيفها من قوياتها غير متعتع)<sup>٢</sup>. وقد سمعنا الكثير من ارشاداته للفرد، وسيأتي ما هو اكثر، وقد قال في ذلك ايضاً: (ان استطعت ان لا تخالط احداً من الناس إلا كانت يدك العليا عليه فافعل)<sup>٣</sup> والبد العليا هي التي تبتديء بالمعروف وتسدي الاحسان، وتؤدي حقوق الغير اليه كاملة، وقد سمعنا قوله: (سيد الاعمال ثلاثة: انصاف الناس من نفسك حتى لا ترضى بشيء لنفسك إلا رضيت لهم بمثله)<sup>٤</sup>.

ويقول في تهذيب الاسرة: (اذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة اشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم وشماتة الاعداء بهم وهى ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيتشتت امرهم، والتواصل ليكون ذلك حادياً لهم على الالفة، والتعاون لتشملهم العزة)<sup>٥</sup> وهويتدرج في حديثه عن تألف الاسرة

(١) الكافي الحديث ١٥ باب حق المؤمن.

(٢) الوسائل الحديث ٩ باب وجوب الامر بالمعروف.

(٣) الكافي الحديث ١٤ باب حسن الخلق.

(٤) اشرنا الى مصدر الحديث فيما سبق.

(٥) كتاب تحف العقول ص ٧٨.

تدرجاً طبيعياً، فأول مراحلها هو نبذ التحزب والتفرق، واهم اسباب التحزب هو الحسد، ولا سيما اذا كان بين الاقوياء فيجب نبذه لانه يشتت الامر ويفل الحد، والمرحلة الثانية هي التواصل والبرلان التواصل يسبب الالفة والمحبة، وهذه هي المرحلة الثالثة وهي الاخيرة وواجب الاسرة فيها هو التعاون بين الافراد في كل مهمة ليعيشوا اعزاء في جماعتهم و افرادهم .

اما الحكومة وممثلها التام في عصر الامام الصادق (ع) هو السلطان فان الامام يفرض عليه في ادارته: (حفظ الثغور وتفقد المظالم واختيار الصالحين لا عمالهم)<sup>١</sup> ويلزمه لرعيته: (بمكافأة المحسن ليزداد رغبة في الاحسان، و تغمد ذنب المسيء ليتوب ويرجع عن غيه وتألفهم جميعاً بالاحسان والانصاف)<sup>٢</sup> ولل امام فيما يشبه هذا كلمات كثيرة تحدد واجبات السلطان، و وظائف الامراء وفروض الرعية .

و كل ما نستطيع ان نقوله عن هذه الكلمات و امثالها انها نصائح من الامام (ع) يرشد بها خلفاء عصره و من يشابههم في الحكم، ولا يسعنا ان نعتبرها رأياً للامام في الحكومة المثالية التي ينشدها للمجتمع المثالي .

اما الحكومة المثالية في رأي الامام فهي فكرة كبيرة ضعف قلب الزمان عن تحقيقها، و صغر الزمان عن احتمالها فطواها في مهدها يوم لف النبي (ص) في اكفانه، و بقيت امنية مكبوتة في قلب الامام الصادق (ع) و في قلوب زعماء الانسانية من ابائه و ابنائه، هي حكومة اسسها الله يوم اسس الدين، و شرع نظامها يوم انزل القرآن، و سمي خلفاءها يوم بعث محمداً بالرسالة، و هي حكومة غرس النبي بذرتها يوم غرس التوحيد، و تعاهدها يوم تعاهد الامة بالوصايا، و لست اقول إنه اتم العهد للخليفة الاول يوم الغدير، فهذا شيء قد لا يسيغه بعض القراء فقد تجاهله التأريخ من قبل هذا، و تجاهلته الأمة من قبل التأريخ، فقلبت النظام يوم انقلابها،

واسقطت من القائمة اسما لتثبت مكانها اسما .

نحن لا ننتكر للتأريخ حين يثبت ما كان وحين ينفي ما لم يكن ، و لكننا ننكر عليه حين يمده المؤرخ من وراء العقيدة وحين يمده من وراء السياسة ، وكم لعبت السياسة في التأريخ ادواراً في عصوره الاولى ، و تبعثها العقيدة على الاثر تمحوها تمحو و تثبت ما تثبت ، ولو قدر البقاء للدعاية الاموية الاولى بعد يوم الحسن (ع) و يوم الحرة لعفيّ اثرهما في التأريخ .  
لتبق هذه الحكومة المثالية امينة مكبوتة في قلب الامام الصادق (ع) وليسدل ستار الكتمان على عهد النبي الأخير ، و لتتحول الخلافة الاسلامية ملكا عضواً بعد عهد الخلفاء الراشدين فان هذا لا يقلل من سعي الامام في تهذيب الامة ، و لا يضعف من دعوته الى انشاء المجتمع العادل .

## العفة

يقول القدماء من علماء الاخلاق : الشهوة اول قوة يعرفها الانسان في حياته ، والغضب هو القوة الثانية ، و يسمون الاولى قوة الجذب ، و الثانية قوة الدفع ، وهم يؤسسون على هذا الترتب الوجودي بين القوتين نتيجة علمية لها اثرها في تهذيب الملكات و اصلاحها . يقولون ان الشهوة اول قوة يعرفها الانسان ، فيجب ان تكون هي اول قوة يباشر الانسان في تهذيبها ، و يقررون ان اصلاح الملكات على هذا الترتيب اسرع في الاثر و اسهل في الانتاج .

و نحن نجد الامام الصادق (ع) في بعض اخلاقياته يقدم ملكات قوة الشهوة على ملكات الغضب عند التعداد فقد سمعناه يصف لنا العدل فيقول : « اذا غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم » و يقول : « المؤمن من طاب مكسبه ، و حسنت خليقته و صحت سريرته ، و

انفق الفضل من ماله، وامسك الفضل من كلامه، وكفى الناس شره، وانصف الناس من نفسه»<sup>١</sup> وسمعناه يقول ما يشبه هذا في كلمات اخرى، فهل يصح لنا ان نعد هذا تقريراً من الامام لهذه النتيجة؟

ليس من الحق ذلك لان التقديم في التعداد غير وجوب التقديم في التهذيب. على ان الامام (ع) قد يقدم فروع الغضب في بعض اخلاقياته الاخرى.

الردائل الخلقية جرائم فتاكة يجب دفعها عن النفس مهما امكن الدفع وسموم قاتلة يلزم الحذر منها ما امكن الحذر وجميع النقائص الخلقية في هذا الحكم على السواء، ولا فرق بين القوي منها والضعيف، والاول والآخر، والحكمة في تقديم بعضها على البعض مختلفة جداً.

من الناس من يكون قوي الارادة حازم النفس، ومن الخير لهذا الصنف من الناس ان يبتدىء باصلاح ملكاته القوية لان تأخيرها مظنة للفساد الخلقى العام، هذا اذا لم يتمكن من اصلاح جميع ملكاته دفعة واحدة. ومن الناس من يكون ضعيف الارادة واهن النفس ومن الصواب له ان يبتدىء باصلاح الضعيف من صفاته ليثمرن به على جهاد القوي. و هذا الرأي وان لم نجد فيه قولاً صريحاً للامام الصادق (ع) الا ان النظرة الفاحصة في اقواله تؤكد لنا ان هذا خلاصة مذهبه في تهذيب الاخلاق.

قد تستبد الشهوة وتشذ وتمرد على حكم العقل، وتسيطر على قوة العمل فتسمي هذه الشهوة المتمردة شراهة، ويكون تمردها هذا انحرافاً في الخلق، ويتكون من اهمال الغريزة واعطائها الحرية الكاملة فتصنع ما تريد، وللسعي وراء الملذات التافهة والشهوات الرذيلة اثر بالغ في تنمية هذا الشذوذ وتربيته، فان حرية الشهوات تجعل الحر عبداً مملوكاً» (ومثل

(١) الكافي الحديث ١٨ باب المؤمن وعلاماته.

الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»<sup>١</sup> والمراد من الدنيا في هذا الحديث هي شهواتها وملذاتها. ومن البهائم قسم يشبه الانسان في الصورة، ويلحق به في التعداد، وهو يناقضه في العمل وبيئته في السلوك، يرتكب ما لا ترتكبه البهيمة، و يعمل ما ينجل الانسانية، ويعمل اعماله بأن الانسان خلق ليكون حراً فليحطم كل قيد وليكسر كل غل، وليثري وجه كل عادة ودين. الدين يقف في وجه الحريات فلينبذ، والعادات نجدد سلوك الانسان فلتسقط، و اخيراً هي عادات غريبة يجب على المتمدنين ان يسايرها وفقاً للتطور ونبذاً للقديم.

مساكين هؤلاء قد سرى الاستعمار الغربي حتى الى نزعاتهم، واثار المستعمرون حتى في مجاري تفكيرهم، والمستعمرون ذهابة مكرة يعرفون كيف يغزون عقول الضعفاء من طريق الشهوة ومظاهر الحرية ليأخذوا من قلوبهم كما اخذوا من رقابهم و اموالهم، و أتى لهؤلاء المساكين بأن ينقلوا عادات الغرب الى الشرق، و أتى لهم أن يسايروا المتمدنين في كل ما يعمل، و اذا كان في الغرب ساقطون يعملون مثل هذه الاعمال، فان فيه عقلاء يترفعون عن الدنيا و يتنزهون عن الحسائس.

خلق الانسان ليكون حراً في الفكر حراً في الحقوق، لا ليعبد الشهوات باسم الحرية، و يقلد البهيمة باسم نزع التقليد، ولا اقول اكثر من هذا لانه لا يدخل في منطقة الباحث الخلقى.

وهنا لون من افراط الشهوة، ولكنه لون احق - إذا صح ان نصف الالوان بالحماقة - اقول هو لون احق لانه مشوه الغاية، مضطرب النتيجة، و لكنه رغم جميع ذلك شائع جداً، ولا سيما في الطبقة المترفة التي تدعي

(١) الكافي الحديث ٢٤ باب ذم الدنيا.

الرفعة، وتتولى رعاية الامور، وهذا اللون هو تعاطي المسكرات.  
 رأيت الانسان بشحمه و لحمه يدخل الحانة ليهب عقله بلا ثمن، و  
 يشتري الجنون منها بالمال؟ رأيت من يساوم على مقدساته و مقدراته بهلة من  
 الكأس و رشفة من العقار؟ رأيت الانسان يتمعك كما يتمعك الحمار، و ينبح  
 كما ينبح الكلب، و يعربد كما يعربد المجنون، ثم يدعي بعد ساعة انه من  
 رؤوس العقلاء و من قادة المفكرين، و قد يتصدى لمهات الاشياء و يتسلم  
 مقاليد الامور؟

هو في نشوة من سكره، ولذة من خياله، و ماذا عليه اذا سلم ثمنها  
 مضاعفاً من عقله، و ماله و بدنه و راحته و دينه، فانه يبيع جميع ذلك لنفسه،  
 و ماذا عليه اذا تمت في كلماته، و تحاذل في حركاته، فانها بعض نواحي  
 اللذة، و أحد مظاهر الحرية التي ينشدها المتمدينون من امثاله، و ليكن منزله  
 جحيماً مستعراً للأسرة، فان الحانة جنة له و ارفة الظلال، و بعد فانه يريد أن  
 يتخلص من ارتاب الحياة فليخلص من كل شيء يتصل بها.

ساعة شهية يستقبل فيها احلامه و اوهامه ثم يفرغ ما في بطنه من  
 خمر و ما في عقله من سكر، ثم يزاول اتعاب الحياة من جديد، و للعقلاء عليه  
 أن ينظف ثيابه اذا علق بها شيء من اوساخ الطريق فاذا يريدون منه بعد  
 ذلك. يتعلل المجانين بنظائر هذه العلل، و هل تكون علة الخيال إلا خيالا، و  
 هل يعتذر عن الجنون بغير الجنون؟

ومن هؤلاء من يترفع عن الحانات، و لكنه يتخذ من داره ماخوراً  
 خاصاً لنفسه و لندمائه، فيشرب و يشربون بمنظر من فتاه و بمسمع من فتاته، و  
 لعل فتاه هو الساق و لعل فتاته هي المغنية، إنه فن... و إنه تسلية نفس...  
 يا للسوء و الجفاء... و يا للدناءة الخلقية، و اذا رضى الانسان لنفسه  
 بالنقيصة فكيف لا يقبل لعرضه بالدنية، و هل تبقى الحمرة فيه بقية من شعور  
 ليميز بين الحسن و القبيح، و الصحيح و الفاسد...؟

عد على الفقراء من أمتك ببعض هذا الاسراف ، وخصص شيئاً منه لمشاريع الخير، واحتفظ بالباقي ليومك العسير، وافعل ما يفعله الرجل العظيم في نفسه القوي في ارادته، فستنال الذكر الجميل في الدنيا اذا كنت ممن لا يثق بالجزء في الآخرة، كم رأيت من ثروة كبيرة دمرتها الخمرة، وجاه عريض لعبت فيه الكأس، و اذا كنت لم تشاهد شيئاً من هذا فانك قد سمعت منه الشيء الكثير.

ومن هذه الالوان الحمقاء التي تغلب الغاية، وتعكس النتيجة تظاهر الشباب بمظاهر الانوثة، وتصنع الفتى كما تصنع الفتاة. هذا هو الداء الفاتك وهذا هو السم القاتل، ولو كان مختصاً بالشباب الفارغ الذي تعده الامة كلاً ثقيلاً عليها لهان الامر وسهل الخطب، لان هذا النوع من الناس عار على المجتمع، ولكن... ولكن الداء استعزل، والنقص استفحل حتى عم الشباب المثقف الذي تعده البلاد ليومها الآتي، وتدخره الامة لسعادتها المرجوة.

اقول ان الداء استفحل لانه يهدد مستقبل النهضة، ويزعزع كيان الأمة، وهل تنهض الامة بالمساحيق والمعاجين؟ وهل ينهض بالامة شباب قتل الترف ما فيه من طموح وأمات السرف ما فيه من جد، وأخذ التأثت ما في دمه من جدوة؟

إيه أيها الشباب الناهض. إيه يا عدة اليوم القريب، غرة وطرة، وخذ وقد، وسحر وفتون، كل هذه الاشياء خلقت لغريك أيها الناشء العزيز، واذا كانت الطبيعة قد منحتك شيئاً منها فهي تؤهلك لمقام أسمى، و محل أرفع، لالتجملك متعة وفتنة.

خلقت لتكون محل إعجاب وثقة، لا لتكون مثار عاطفة وحب، و لتكون موضع إطراء وثناء لا موضع غزل وتشبيب... وأخيراً فقد خلقت لتكون رجلاً.

هل تعلم كم في العيون التي ترنو اليك من نظرة خائفة، وكم في الابتسامات التي تستقبلك من ابتسامة مربية، وكم في الناس الذين يحومون حولك من قلب عابث. وأخيراً فهل تعلم أنك أنت الذي تجني بذلك على حاضرک الزاهي ومستقبلک الباسم. والشباب زهرة العمر ومستهل الحياة فهو أثم من أن يقتل بتصنيف الطرة وصقل الغرة، وماذا يجنيه الشاب من تزجيج الحاجب وخلق الشارب غير اضاءة الوقت وتهديد المستقبل، فالى السعي يا رجل الغد القريب، ويا أمل الأمة المنشود. الى السعي فان الرجل بثقافته وأعماله والرجل بسيرته وسريرته والرجل بجهاده في ميادين الحياة. ولو أردنا ان نستعرض جميع الفروع التي تتصل بافراط الشهوة لاحتجنا الى مجلد ضخيم، والامام الصادق (ع) يذكر أكثر هذه الفروع في كلماته.

يشتد إفراط الشهوة فيتولد منه الحرص، ويقوى الحرص فيكون تهالكاً في حب المال والجاه، وينتج منه التكبر، والرياء، والتحاسد و.. والامام الصادق (ع) يعرض جميع هذه الأدواء عرضاً إجمالياً حين يقول: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)<sup>١</sup> أما الطمع الذي يثمر أكثر هذه النتائج فهو الذي يخرج الانسان من الايمان في رأي الامام الصادق (ع)<sup>٢</sup> و هي المذلة التي يقبح بالمؤمن ان تكون فيه<sup>٣</sup>.

ويقول (ع): (من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرتة عند فراقها)<sup>٤</sup> الشهوات مصادر الآلام، وهى أسباب تؤدي الى التعب وفقد الراحة، فالشهوة سبب للألم قبل حصولها لأن تحصيل الرغبات يستدعي من الانسان طويلاً من السعي وكثيراً من الجهد، وهى سبب للألم بعد وجودها لأن حصول الرغبة يثير الحرص في الانسان على طلب نظائرها فيسلبه الراحة و

(١) كتاب الخصال للصدوق ص ١٥ . ٢) الكافي الحديث ٤ باب الطمع . ٣) الحديث ١ من

المصدر المتقدم . ٤) الكافي الحديث ١٦ باب حب الدنيا .



يفقده اليطمأنينة، والشهوة سبب للألم بعد فراقها لأن فراق المؤلف يبعث الأذى ويسبب الألم، وكلما كانت الرغبة أكثر ملائمة للإنسان كان فراقها أشد ألماً في قلبه، وأكثر مضاضة في نفسه، وقد تعرض الامام الصادق (ع) لهذه الناحية في حديثه المتقدم، اما الناحية الاخرى فانه يقول فيها: ( من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال)<sup>١</sup>.

و اذا توازنت قوة الشهوة في ميولها، وخضعت للعقل فيما يحكم، و اتبعت إرشاده في كل ما يشير كانت عفة و حرية، والامام الصادق (ع) يسميها عفة حين يقول: (اي الاجتهاد أفضل من عفة بطن و فرج)<sup>٢</sup> و يسميها حرية حين يصف صاحب الدين فيقول: ( ورفض الشهوات فصار حراً)<sup>٣</sup> ثم هو يحدد بها معنى الزهد بقوله: (أزهد الناس من ترك الحرام)<sup>٤</sup>، و حين يسأله بعض اصحابه عن الزهد فيقول له: ( و يحك حرامها فتكبه)<sup>٥</sup> و هذه هي الدرجة الأولى من الزهد التي يشترك فيها عامة الناس، و للزهد درجات اخرى متفاوتة يختص بها قوم من المخلصين، أما الرهبانية وارهاق النفس بالتعذيب المتواصل و حرمانها من الحقوق المحترمة فهي أمور ليست من الزهد. بل و ليست من الدين في قليل و لا كثير.

### القناعة والاقتصاد:

يحد الانسان من شهواته و رغباته فيضمن لنفسه الراحة من العناء، و يوفر عليها كثيراً من الزمن، و يقتصد في المعيشة و يعتدل في حب المال، و

(١) الحديث ١٧ من المصدر المتقدم، و يقول المجلسي في كتاب مرآة العقول المراد بالأمل في الحديث هو الأمل في البقاء في الدنيا و الرجاء هو الرجاء للذاتها.

(٢) جامع السعادات ص ٣١١.

(٣) مستدرک الوسائل ج ٢ ص ٣٧٩.

(٤) الخصال للصدوق ص ١١ (٥) الكافي الحديث الاول باب معنى الزهد

يسمى الاعتدال في حب المال قناعة، ويسمى الاقتصاد في المعيشة رفقاً، و يقول فيه الامام الصادق (ع): (الرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال)<sup>١</sup> ويقول ايضاً: (ما زوي الرفق عن أهل بيت الازوي عنهم الخير)<sup>٢</sup> ويقول: (ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر)<sup>٣</sup> وليس بين البخل وبين الاقتصاد صلة، ولكن من البخل من يعلل عن امساكه بانه نوع من الاقتصاد الذي يأمر به العقل، وهي علة يتعلق بها المذنب وعذريسوقه اليه شعوره بالجريمة، الاقتصاد تنظيم معيشة الانسان على ما يفرضه العقل الصحيح، وتحمله المقدرة المالية فيعطى في موضع الاعطاء ويمسك في موضع الامساك بلا سرف ولا تقتير، والبخل هو المنع في موضع وجوب الاعطاء. والتقتير في محل وجوب التوسعة، فأية صلة بين الخلقين.

الاقتصاد هو التوازن العادل و طرفاه هما الاسراف والتقتير، أما الكرم والايثار فهما لا ينافيان الاقتصاد اذا اقتضتها الحكمة، وتحملتتها المقدرة، المقتصد سخي لانه (يؤدي واجب الشريعة، و واجب المروعة، و واجب العادة) والبخل هو (الذي يمنع واحداً من هذه الواجبات).

والقناعة صفة تقارب الاقتصاد في الاثر، و تقابله في المعنى، والفرق بينهما هو الفرق بين الخلق والسلوك، القناعة ملكة في الانسان تكسبه الرضا بالقليل، والاكتفاء بمايسد الحاجة، والاقتصاد تنظيم المعيشة على ما تفرضه الحكمة وتدعو اليه الضرورة و أثر كل منهما اطمئنان النفس بما يحصل لها من القوت، والاقتصاد محتاج الى القناعة في وجوده، والقناعة محتاجة الى الاقتصاد في ظهورها في العمل، فيكون بين الوصفين تضامن في العمل واتحاد في الاثر.

خلق الانسان و خلقت معه الحاجة و الوسائل التي يسد بها تلك الحاجة، لا بد للانسان من القوت لانه يريد ان يعيش ولا بد له من الملابس

(١) الكافي الحديث ٩ باب الرفق (٢) الحديث ٨ من المصدر المتقدم (٣) جامع السعادات ص ٣٦١.

لانه يريد ان يجتمع ، ولا بد له من المسكن لانه يريد ان يستقل ، اذن فالانسان محتاج الى هذه الضرورات و الى امثالها من وسائل الحياة ، وهو محتاج الى مال يبلغه تلك الغايات ، و الى مكسب يوصله الى المال ، و كيف يحصل على الكسب بغير الاجتماع .

حلقات من الحاجة يتصل بعضها ببعض ، ولا ينفك بعضها عن بعض ، و المال بعض هذه الحلقات المتصلة ، ولا ينكر احد اهميته في الحياة ، و لكن الشيء الذي يستنكره العقل أن يجعل المال هو الغاية الاولى والاخيرة تحطم في سبيله كل غاية ، و تستخدم في تحصيله كل وسيلة ، و ينبذ كل تشريع و نظام .

النفس ميالة الى الشهوات ، و المال يسهل لها طريق الحصول على هذه الغاية ، هذا هو مبدأ الشر و هذه هي جرثومة الداء ، هذا هو الذي يفسر لنا المبالغة التي نجدها في ذم المال و التحذير منه فان التخلص من الادواء التي يسببها جمع المال عسير جدا .

( ان الشيطان يدبر ابن آدم في كل شيء ، فاذا اعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته )<sup>١</sup> هذه كلمة يقولها الامام الصادق (ع) في التحذير من المال و بالاحرى في التحذير من النقائص التي يسببها جمع المال ، الشيطان يجثم لابن آدم عند المال اذا اعياه في كل شيء ، اذن فالمال أعظم شبك الشيطان و اكبر مصائده ، و الانسان مفتقر الى المال لان الحاجة تدعوه الى طلبه ، و اذن فلا بد أن يلتقي الخصمان على مجزرة المال ، و لا بد أن يغلب المتيقظ منها الغافل ، و يظفر الجاد بالهازل ، فان المال باب الشهوات و مفتاح المطامع ، و الانسان رهين اطماعه و عبد شهواته ، و هكذا يستعبد الحر و يبلغ الشيطان أمنيته من عدوه فيأخذ برقبته رضي الانسان بهذه النتيجة أم أباه .

(١) اصول كافي في الحديث ٤ باب حب الدنيا .

و للشريعة الاسلامية نظرة معتدلة الى المال ، فهو خادم أمين يبلغ به الانسان حاجته ، وللخادم الامين منزلته وله مقامه ، على ان يبقى السيد سيداً ، ويظل العبد عبداً ، والمال وسيلة محبوبة توصل الانسان الى الخير ، وتحصل له السعادة ووسيلة الخير خير ، وسبب السعادة سعادة ، على ان تبقى الوسيلة وسيلة والغاية غاية ، واما تحصيل المال بالسرقة والخيانة ، والظلم في المعاملة والتعدي على الحقوق . و .. فهو اشد المحظورات عند الشرع والعقل ، ومن اعظم المنكرات في علم الاخلاق ، لانه يمت الغاية قبل الحصول على الوسيلة ، وينقض الاساس قبل ان يتم البناء ، ولست بحاجة الى ذكر الشواهد على ذلك من كلمات الامام الصادق (ع) لان تحريم هذه الاشياء من ضروريات الدين الاسلامي .

ولست اذكر الربا والمرابين إلا بخير ، فان الربا اختلاس يبيحه النظام المدني ، والمرابين سراق يحترمهم القانون ، وماذا على المسلم اذا أكل الربا هنيئاً مادام القانون يثبت له هذا التجاوز ، وما دامت المعاملات الربوية شائعة بين الناس ، فليغتصب أموال الناس باسم النظام ، وليموه على جريمته باسم التأويل ، وليكن بعد هذا محارباً لله ولرسوله في رأي القرآن ، وليكن الربا اشد حرمة من الزنا في رأي الامام الصادق (ع) ، فانه يتأول قبل ان يرتكب ، وليس عليه بعد التأويل شيء .. وبعد فان تحريم الربا فكرة يجب على المسلم ان يعترف بها في مقام الاعتقاد ، وليس عليه ان يطبقها في مقام العمل .

والفقير قد يكون آمناً من اكثر هذه الجرائم التي تتعلق بالمال ، ولكنه قد يتعرض لما هو اشد منها جرماً واكبر اثماً .

قد يحمله الاعواز على ان يسرق ، وقد يدعوه الفقر الى ان يخون ، او يستدين ثم ينكر ، وقد .. ، وقد . ، والفقير الى جانب اليأس اقرب منه الى طرف الرجاء ، و الى الجزع اكثر ميلاً منه الى الصبر ، واكثر ما يقترفه من

الذنوب نتيجة ذلك اليأس و ثمرة ذلك الجزع، واحاديث الأئمة من اهل البيت (ع) قد تنوعت للفقير بأنواع البشائر لتحبي فيه ميت الرجاء، و تبعث في قلبه روح الامل، ثم امرته بالكسب ورغبته في الاقتصاد، وللامام الصادق (ع) كلمات تتصل بهذا البحث يجب ان تتخذ قواعد عامة في باب الاقتصاد، و من هذه الكلمات قوله:

« لا تكسل في معيشتك فتكون كلا على غيرك »<sup>١</sup>

« ضمنت لمن اقتصد ان لا يفقر »<sup>٢</sup>

« انظر من هو دونك في المقدرة، ولا تنظر الى من هو فوقك »<sup>٣</sup>

« السرف امر يبغضه الله حتى طرحك النواة فانها تصلح لشيء »<sup>٤</sup>

« من كان رفيقا في امره نال ما يريد من الناس »<sup>٥</sup>

« تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ غَلْبَةِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ »<sup>٦</sup>

## الشجاعة

ابرز صفات الرجولة، واعز ملكاتها، و اكثرها اثرآفي تهذيب الاخلاق، و تنظيم الاعمال، لان تهذيب الملكات جهاد، والمحافظة على الملكات المهذبة جهاد آخر، والمجاهد مخدول اذا لم تناصره الشجاعة ولم يرافقه الصبر، وبالثبات تنجح المساعي و تبلغ المقاصد، وتم الاعمال، والشجاعة بنفسها احدى الملكات التي لا تحصل إلا بالمجاهدة، لانها توازن في قوة الغضب، و كيف يتوازن الغضب من غير كفاح، و كيف ترد عاديته بغير

(١) الكافي الحديث ٩ باب كراهية الكسل من كتاب المعيشة.

(٢) و (٣) جامع السعادات ص ٣٦١.

(٤) تحف العقول ص ٨٩.

(٥) الكافي الحديث ١٦ باب الرفق.

(٦) الكافي الحديث الاول باب الدين.

جهاد، و اذن فلا بد للانسان من قوة اخرى تضرب الغضب بالغضب و تمزج اللين بالقوة لتركب من المجموع مزيجاً معتدلاً يسمى بالشجاعة، و تلك القوة هي الحكمة، و جنديها المكافح هو قوة الارادة.

(الغضب محقة لقلب الحكيم) بهذه الكلمة القصيرة يصف الامام الصادق (ع) آثار الغضب ثم يقول بعدها: (من لم يملك غضبه لم يملك عقله)<sup>١</sup> الحكمة دليل الخير ورائد الاصلاح، و قلب الحكيم مصدر هذه الدلالة و مشرق ذلك النور و لكن ماذا يجدي هذا الدليل إذا هاج الغضب، و ماذا ينفع هذا إذا احتدم الغيظ.

قد يسترشد الاعمى فيرشد، و قد يستدل الحائر فيهتدي و الغاضب لا يقبل الارشاد ولا يسمع النصيح، لان الغضب جنون و المجنون لا يسمع نصيح الناصحين، دليل هذه الدعوى ظاهر في عيني الغاضب، و على تجاعيد وجهه، و احتباس انفاسه، و تزاحم الكلمات على شفثيه، ثم هو قد يعتذر بعد ذلك عن اعماله بأنه غاضب، اذن فهو يعترف على نفسه بالجنون (و من لم يملك غضبه لم يملك عقله).

و تهذيب الغضب يكون قبل حصوله، و طريقه هو التفكير في اسباب الغضب و التأمل في عواقبه و ما يجره على النفس و على الغير من اضرار و اخطار. و ليس من الصلاح ان يتعرض المرشد للانسان في ساعة غضبه، لانه قد يضيف بارشاده الى الغضب غضباً و يجمع الى النار حطبا، و لكن من الخير ان يتمهله في النتيجة، و ان يصرفه عن الفكرة صرفاً تدريجياً، لان الغضب ثورة في دم القلب كما يقولون و بالتماهل و صرف الفكر تسكن هذه الثورة و يخلد الانسان الى السكون، و يقول بعض علماء النفس (اذا غضبت فعد العشرة) و هو يشير الى هذا المعنى لان تعداد العشرة يستدعي فرصة ولو قصيرة و يسبب تغييراً في وجهة النظر ولو قليلاً.

(١) الكافي الحديث ١٣ باب الغضب.

(الغضب مفتاح كل شر)<sup>١</sup> يزول الغضب عن الانسان ببطء او بسرعة، ويبقى في النفس ما تبقى النار في الهشيم، واذا خلفت النار اثرا واحدا او اثرين، فان الغضب يبقى آثاراً كثيرة لا يضبطها حساب، فالحقد، وحب الانتقام والقسوة وسوء الخلق، والبغي، والعجب، والكبر، و... و... كل هذه من ثمرات التهور والافراط في قوة الغضب.

ويقابله من جانب التفريط الجبن، واذا كان التهور خروجا عن حدود الانسانية الى حد الجنون، فان الجبن ضعة في صفات الرجولة الى حد السقوط.

يعيش الجبان في جو من الاضطراب، و يخلق لنفسه مشاكل من الذعر. لانه يفقد أعز شيئين يحتاج اليهما الانسان، وهما: الثقة بالنفس، وقوة الارادة، وعدوه الاول والاخير: الخوف والشعور بالنقص، ولو فكر قليلا لعلم ان جميع ذلك من نسيج الوهم، وان الاحتياط الذي يتخذه لنفسه هو أشد ظلمة من الواقع الذي يحذر منه، لان عاقبة هذا الخوف معلومة الخطر أما الواقع الذي يفر منه فهو خطر محتمل، ويحدثنا التاريخ ان كثيرا من الجبناء قتلهم الخوف من حيث انهم يجتنبون مواضع الخوف.

وللجبن أثر سيء على الصفات والاعمال، فهو يطبع الاخلاق بطابع الذعر، ويسم الاعمال بسمة التردد، وقد يكون من المستحيل على الجبان ان يتم عملا واحداً صحيحا حتى في هذه الاعمال التي يتحصن بها من الخوف، لانه ضعيف النفس أمام وهمه، ضعيف الارادة امام خطواته. وردائل الجبن لا تقل عدداً عن نقائص التهور، ومن أعظمها تأثيراً على الانسان الخوف من غير وجود سبب يوجب الخوف، والعجز عن احتمال ما يجب تحمله من الامور، وضعة النفس وقصور الهمة، وفقدان الغيرة.

اما الشجاعة فهي أول فضيلة للقوة الغضبية، ولها مظهران: ثبات

(١) الحديث الثالث من المصدر المتقدم.

في مقام الدفاع . و اقدم في محل الجهاد .

والشجاعة لا تتميز بلون واحد، ولا تختص بسمة خاصة، فالعضب للحق شجاعة لانه مما يأمر به العقل، والحلم عن جهل الجاهل شجاعة لانه مما يدعو اليه الرشد والثورة على الباطل شجاعة لانها مما تقتضيها الحكمة، يتقدم الشجاع في موضع التقدم، ويتأخر في محل التأخر، وهو في كلتا الحالتين شجاع لانه ثابت القلب أمام المخاطر، شجاع لانه يدبر حركاته بالحكمة . ويقسمها المتأخرون من الخلقين الى شجاعة بدنية، وشجاعة ادبية .

### الشجاعة البدنية:

(جبلت الشجاعة على ثلاث طبائع، لكل واحدة منهن فضيلة ليست للآخرى: السخاء بالنفس، والأنفة من الذل، وطلب الذكر، فاذا تكاملت في الشجاع كان البطل الذي لا يقام لسبيله والموسوم بالاقدام في عصره، واذا تفاضلت فيه بعضها على بعض كانت شجاعته في ذلك الذي تفاضلت فيه اكثر واشد اقداما)<sup>١</sup>.

عناصر الشجاعة ثلاثة على ما يقرره الامام الصادق (ع) في هذا الحديث، يجب توفرها في الشخص ليمسى شجاعاً بالاستحقاق، والذي يفقد واحدا منها لا يستحق هذه الصفة لانه يفقد ركناً من اركان الشجاعة . (١) السخاء بالنفس، وهذا هو العنصر الاول في الاهمية ايضا، و اذا عرفنا ان السخاء بالشيء هو بذله عن طيب نفس علمنا الذي يتكلف بذل نفسه لبعض الدواعي لا يستحق ان يسمى شجاعا، و ان اجتمعت فيه العناصر الاخرى للشجاعة ولكن قد يتكرر هذا التكلف من الانسان حتى يصبح معتاداً عليه، و يعود سخيا ويستحق صفة الشجاعة اذا استكمل بقية

(١) كتاب تحف العقول ص ٧٨ .



عناصرها .

(٢) و (٣) الإياء، والشمم، وهما خلقان نفسيان متلازمان في الأكثر، واثرا لإياء احتفاظ الانسان بكرامة نفسه وترفعه عن الدني من الامور، واثر الشمم، طلب الرفعة والتوجه الى المراتب الجليلة، وهما قريبان في المعنى من عزة النفس، وعلو الهمة، وسند كرها فيما يأتي. وهذه العناصر الثلاثة المتقدمة قد تجتمع في الشخص بأرق مراتبها فيصفه الامام (ع) بالشجاع الكامل وبالبطل الذي لا يقام لسبيله. وقد يضعف فيه بعض العناصر فيفقد من الشجاعة الكاملة بمقدار ذلك النقص .

اما الشرط الاول للشجاعة وهو اخضاع قوة الغضب لقوة العقل فيقول فيه: ثلاثة تعقب مكروها. حملة البطل في الحرب في غير فرصة، وان رزق الظفر<sup>١</sup>. النفس أثنى شيء يجده الانسان، ونفس البطل أعز ذخيرة يحتفظ بها ليومها الاكبر، فيجب عليه ان لا يخاطر بهذه النفس الا اذا أحرز الفرصة ووثق بالفوز، والا فانه يبيع نفسه من غير ثمن، والعقل يعده مجازفاً وان رزق النصر، لأن نصره هذا وليد المصادفة، والمصادفات لا تدخل تحت مقياس .

والشجاعة لا تختص بالجندي يقدم نفسه فداء للدين، أو يبذل دمه لنصرة الوطن فان للشجاعة البدنية أنواعا كثيرة، لأن شدائد الحياة لا تدخل تحت حساب، وملاقة هذه الاهوال شجاعة متى كان الاقدام فيها باشارة العقل وارشاده فالشجاعة تكون في الجندي وفي القائد، والطبيب ورجال الانقاذ على حد سواء اذا اجتمعت في هؤلاء عناصر الشجاعة التي ذكرها الامام في حديثه السابق .

### الشجاعة الادبية

قد يصوب الانسان رأياً من الآراء أو يعتنق مبدءاً من المبادئ،

فيعتقد أنه الحق، ثم يجهر بهذه العقيدة وان كلفه الجهر بها غالباً، وأدى ثمنها مضاعفاً فيسمى جهره هذا شجاعة أدبية عند الأدباء المعاصرين.

والشجاعة الأدبية خطة كبيرة يقوم عليها أساس نشر الحق وإعلان المبادئ السامية، وهي خطة المصلحين العظماء الذين اضطهدوا في اسعاد البشر وما توا لاحيائهم، والذين تنكرت لهم البشرية أحياء أثم خلدت لهم الذكر أمواتاً، ومن هؤلاء جنود مجهولون خدموا الناس فأنكرهم الناس وجهلهم التاريخ، ولكن أعمالهم مدونة في سجل هو أرفع من التأريخ، وإذا شكر الحق أعمالهم، ورفع لهم منازلهم فإذا يصنعون بتقدير الناس.

والشريعة الاسلامية تجعل هذا المبدأ من أهم فروضها، واكبر واجباتها وتسميه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ويقول الامام الصادق (ع) في بيان وجوبه: (ويل لقوم لا يدينون الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر)<sup>١</sup> ويقول في الحث عليه: (مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلا ولم يباعدا رزقا)<sup>٢</sup>.

مرت على الامام الصادق (ع) ايام مختلفة تبدلت فيها سياسات و تقلبت فيها أمور، وقد شاهد الامام (ع) فيها أنواعاً من الحكم، وكانت الأيام تبتسم له مرة وتعبس مرة أخرى، وكان الحكم يقسوتارة، و يلين تارة، والامام بين هذه الاحوال ينتهز الفرصة لنفسه ولأصحابه في نشر الدعوة الى المذهب، فيأمرهم بالاعلان حين تبسم لهم الايام، ويحذرهم عنه حين تعبس، وهذا الحذر والتكتم أثران من آثار التقية التي عرفت في المذهب الجعفري، والتي شرعها الله في كتابه.

واسرف بعض المذاهب التي تنتسب الى الشيعة في التكتم بعقائده

(١) الكافي الحديث ٤ باب الامر بالمعروف.

(٢) الوسائل الحديث ٣٤ باب وجوب الامر بالمعروف.

وأحكامه حتى بعد ارتفاع الشدة وانتهاء ايام الجور، وتمسك المذهب الاسماعيلي بذلك مشهور في التاريخ، ولايضاح معنى التقية وبيان اسرارها و أحكامها كتب اخرى وباحثون آخرون، والذي نقوله هنا: ان الامر بالمعروف في رأي الامام الصادق يكون واجباً ومن أهم الواجبات حين يكون موجباً لتأييد الحق وتعزيز دعوته، وهو حرام اذا عرض بالدماء الزكية، و خاطر بالنفوس المحترمة، و هو من أشد المحرمات حين يكون سبباً لاهانة الحق و اذلاله، و لذلك فهو يقول: (الذبيع علينا كالشاهر سيفه علينا، رحم الله عبداً سمع بمكنون علمنا فدفنه تحت قدمه)<sup>١</sup> و يقول ايضا: (من روى علينا حديثاً فهو ممن قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأ)<sup>٢</sup> هكذا يأمر أصحابه بالكتمان في ايام الشدة:

### عزة النفس، و علو الهمة

معرفة الانسان بقيمته تستدعي طويلا من التأمل، و كثيراً من التيقظ والانتباه، فقد يسرف به حب الذات فيعطي نفسه اكثر مما تستحق من القيمة، و قد يسف به الصغار فيظلمها أقبح الظلم، و عزة النفس تتطلب من الانسان شيئين:

١- ان يحدد قيمة نفسه تحديداً صحيحاً.

٢- ان يحدد منازل من يتصل بهم من الاصدقاء، و قيمة ما يباشره من الاعمال، فيضع نفسه في موضعها الذي يليق بها، و يتصل بمن يناسبه من الاصدقاء و يباشر ما يليق بشأنه من الاعمال، و التعدي عن ذلك اذلال للنفس و تعريض بكرامتها الى الانتقاص، و في ذلك يقول الامام الصادق (ع): (ان الله فوض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوض اليه ان يكون ذليلاً)<sup>٣</sup>

(١) و (٢) تحف العقول ص ٥٧.

(٣) فروع الكافي الحديث ١ باب كراهة التعرض لما لا يطيق.

ويقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» وسأله الراوي عن معنى اذلاله لنفسه فقال: «يدخل فيما يعتذر منه»<sup>١</sup>.  
 اما علو الهمة فهو استشراف الانسان الى المعالي، ونزوعه الى الرفعة والسمو.

خلق الانسان مجبولا على حب السعادة، والحصول على الكمال، و لكن الوصول الى هذه الغاية دونه عقبات ومصاعب، ولذلك فالذين يجتهدون في طلب الكمال قليلون، والذين يصلون الى الغاية أقل هذا القليل، وعلو الهمة وحده هو الذي يسهل هذه العقبات، ويذل هذه المصاعب.  
 أما قاصر الهمة فقد يقعد به العجز عن السعي وقد يرجع الى الوراء من منتصف الطريق وفي ذلك يقول الامام الصادق (ع) «ثلاثة يحجزن المرء عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الخيلة، وضعف الرأي»<sup>٢</sup>.

كثيرون اولئك الذين يفهمون من عزة النفس معنى الكبرياء، ومن علو الهمة معنى العظمة الزائفة، وهي نظرة خاطئة ترسل من غير تدبر، عزة النفس ترفعها عن الدنيا والنقائص، وعلو الهمة هو طموح الانسان الى شريف الاعمال والاخلاق، وهما أساسان لرقى الفرد ورقى الامة.  
 يقدم الانسان غيره عند تساوي الحقوق فيسمى مؤثراً، ويتسامح في بعض شؤونه فيكون متواضعاً، ويتغاضى عن جهل الجاهل فيسمى حليماً وهو عزيز النفس عالي الهمة في جميع ذلك، من عزة النفس ان يؤثر في موضع الايثار، ومن علو الهمة ان يحلم في موضع الحلم، وعلو الهمة أداة ينال بها الانسان مالا يناله بالثروة، ويدرك بها مالا يدركه بالمنصب، المنصب عادية والثروة زائفة، وعلو الهمة ثروة نفسية باقية ما بق الانسان، وتظل آثارها باقية بعد موت الانسان.

(١) الحديث ٥ من الباب المتقدم.

(٢) تحف العقول ص ٧٧.

أنظر الى من هو فوقك في الكمال ، وثق بنفسك قبل المسير، و اذا سرت  
 فضع قدمك بتثبيت وانقله بجزم فستجد اللذة عند أول قدم تضعها ، و ستفوز  
 بعد قليل بالغاية ، ستعترضك في الطريق اشباح و أوهام يسميها العامة من  
 الناس مصاعب فلا تعرها التفاتا ، ولا تلق لها بالا ، فان السلم لا بد له من  
 المدرج . تقدم ولو خطوة فانها تمهد سبيل الخطوة الثانية ولا تقف في مسيرك  
 إلا حين يأمرك العقل بالأناة فان الوقوف تضييع للفرصة و تبذير في الزمن ، و  
 لتكن العقبات بعد ذلك ما كانت ، فان العقبات لا تصد الحر عن قصده ، ولا  
 تضعف من ارادته «ومن انتظر بمعالجة الفرصة مؤجلة الاستقصاء سلبته  
 الايام فرصته لان من شأن الايام السلب و سبيل الزمن الفوت»<sup>١</sup>.

#### الاناة والحلم :

كل عمل يباشره الانسان بارادته واختياره لا بد له من غاية ولا بد له  
 من طريق يوصله الى تلك الغاية ، والانسان الكامل هو الذي يفكر في الغاية  
 قبل الشروع في العمل فلعل هذه الغاية غير شريفة في نظر العقل و ان وافقت  
 هوى في القلب ، ولعلها لا تناسب علو الهمة و ان كانت شريفة في نفسها  
 فان بعض الغايات يعد شريفاً ولكنه يحدد من قيمة الرجل العظيم ، ولعل  
 الاستيلاء على تلك الغاية يزاحم حقوق آخرين من افراد الانسان فيكون في عمله  
 هذا ظالماً او مستأثراً والعظيم أعلى همة من أن يظلم او يستأثر.

ثم ينظر الى الطريق فعلمها أبعد سبيل الى الغاية فتضييع عليه طويلا من  
 الزمن ، وليس عليه أن تكون أسهل الوسائل فان صعوبة الجهاد تضاعف لذة  
 الانتصار.

تهون علينا في المعالي نفوسنا

و من خطب الحسنة لم يغله المهر

على الانسان أن يتفكر في أسباب النجاح قبل الشروع في العمل ، و عليه ان يتثبت في تطبيقها حين العمل ، و جميع هذا يستدعي أناة في الطلب و تروياً في الفكر لئلا يخفق في السعى و يبعد عن المقصود ، و في ذلك يقول الامام الصادق عليه السلام: (قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل ان تقع فيه فتندم)<sup>١</sup>. و يقول ايضاً: (العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً)<sup>٢</sup>.

و يقول بعض الحكماء: (الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علو الهمة). الأناة هي التثبيت في انجاز العمل حذراً من الاخفاق ، والحلم هو التثبيت في امضاء القدرة عند الغضب ترفعاً عن الظلم او رغبة في التكرم والصفح ، فالأناة والحلم توأمان متشابهان كما يقول هذا الحكيم ، و اما ان نتيجتهما علو الهمة فهو حكم ليس بإمكاننا أن نصدقه في جميع الناس .

من الناس من يكتسب علو الهمة بالحلم والأناة ، و من الناس من يكتسب الحلم والأناة بعلو الهمة ، والحكم الذي لا يقبل الشك ان الحلم والأناة يصحبان علو الهمة صحبة دائمة .

و يقول (ع): (من لم تكن فيه ثلاث خصال لم ينفعه الايمان : حلم يرد به جهل الجاهل ، و ورع يحجزه عن المحارم . وخلق يداري به الناس)<sup>٣</sup>. الحلم مناعة في النفس يتحصن بها الانسان عند هجوم الغضب و حب الانتقام ، والحلم عدة الانسان في اشد مزالقه و اخطر حالاته .

يجهل الجاهل فيحلم عنه العاقل فيكون حلمه هذا تحديداً لكبرياء النفس ، و اشادة بعظمتها في الصفات و ترفعاً عن مقابلة الدنيا من الحصال و درساً عالياً لخصمه في الاخلاق ، و تحديداً لجهل ذلك الخصم عن الزيادة ، و

١) تحف العقول ص ٧٤ .

٢) تحف العقول ص ٨٨ .

٣) تحف العقول ص ٧٩ .

في التاريخ والامثال أناس خلدتهم الحلم ليكونوا مثالا عاليا للناس .  
والعرب القدماء يسودون الحليم ويذكرون في سبب ذلك : ان الحليم  
سيد على نفسه ومن ساد على نفسه كان جديراً بالسيادة على غيره . ويقول  
الامام الصادق (ع) : « لا يعد العاقل عاقلاً حتى يستكمل ثلاثاً : اعطاء الحق  
من نفسه على حال الرضا والغضب ، وأن يرضى للناس ما يرضى لنفسه ،  
واستعمال الحلم عند العثرة»<sup>١</sup> . ويقول : « كفى بالحلم ناصراً ، واذالم تكن  
حليماً فتحلّم»<sup>٢</sup> ، والتحلّم هو التشبه بالحلماء في التغاضي عن الهفوات ،  
والترفع عن المقابلة والتكلف لتهدئة الغضب ، ويسمى في لسان الشريعة  
« كظم الغيظ » ، وأثر التحلم رد عادية الغضب بعد الثورة ، وأثر الحلم منع  
النفس عن الغضب ، وصددها عن الانتقام اذا غضبت ، فالتحلّم أقل شأنًا  
من الحلم ، ولكن الاستمرار عليه يكسب الانسان صفة الحلم .

### الكبرياء والتواضع:

يتقابل الهران المتنافسان ، فينتفش كل واحد منها وينتفخ و  
يتناول ويرتفع ليثبت لخصمه انه اعظم قدرة واشد صولة فاذا وقعت المصادمة  
خفيت المظاهر الكاذبة وظهرت الحقائق وشغل الخصمان بالواقع عن  
الخيال ، وكانت الغلبة للقوة ، فجرثومة التكبر ثابتة في غريزة الحيوان  
والانسان ، و اذا كان بينهما فرق من جهة فهو ان الحيوان يتخذ الكبر سلاحا  
عند لقاء العدو والانسان العاقل ينتفش وينتفخ لغير سبب يوجب ذلك ،  
فالحيوان اعرف من اخيه بمواضع التكبر .

(١) تحف العقول ص ٧٧ .

(٢) الكافي الحديث ٦ باب الحلم .

«ما من احدٍ يتبته إلا من ذلَّه يجدها في نفسه»<sup>١</sup> لماذا يتكبر الانسان اذا كان كبيراً في نفسه، ولماذا يتعاطم اذا كان عظيماً في صفاته، انه - من دون ريب - يجد في نفسه نقصاً محسوساً وضعة بيّنة، وهو يريد ان يتم ذلك النقص ويسد ذلك الفراغ بهذه العظمة المكذوبة، ولكنه بعمله هذا يضيف الى نقصه الاول نقصاً اكبر منه، ويضم الى ضعته الاولى ضعة اشد منه و اذا كان حب الذات يحجب عينيه عن ان تبصر شيئاً من ذلك فان للناس الآخرين عيوناً غير محجوبة. ولعل في المساكين الذين يترفع عن القرب منهم ويأنف من النظر الى أسماهم من هو أشرف منه نفساً وأزكى عملاً وأطيب ذكراً. ويتحدث الامام الصادق عن المتكبر أيضاً فيقول: «لا يزال اعظم الناس في نفسه واصغر الناس في أعين الناس»<sup>٢</sup> يعيش المتكبر ثقيل الظل على الناس جميعاً حتى على المتكبرين من نظرائه، واذا شك في ذلك فلينظر مقت الناس للمتكبرين الآخرين، وليتأمل في نفسه فانه يجدها في عداد الماقتين لهم أيضاً، وليجعل ذلك مقياساً له ان كان ممن يعقل او ممن يجب أن يكون عاقلاً، وإلا فيلقد العزة من حيث انه يريد العزة، ومن نازع الله في رداءه فهو جدير بهذه العاقبة.

ليثق ان الناس لا يهتمهم من امره قليل ولا كثير، اما هؤلاء المتملقون الذين يظهرون له الانقياد والخضوع فهم دهاة مكرة، يقتنصون من ماله بهذا الخضوع ثم يسخرون من عقله ومن كبريائه، ولو تعاهد المسكين نفسه بغير طريق التكبر لبلغ العظمة النفسية الصحيحة ببعض هذا العناء.

الكبر مبدأ سلسلة من الجرائم، و فاتحة سجل من الآثام، واية جريمة خلقية او قانونية يتوقف المتكبر عن اقترافها اذا هي وافقت امنيته، واية فضيلة يسعى الى اكتسابها اذا كانت تصادم رغبته او تزاحم سلوكه، وبذرة

(١) الكافي الحديث ١٧ باب الكبر.

(٢) الحديث ١٦ من المصدر نفسه.



الكبر ليست محدودة النتائج، ولا مأمونة العاقبة، فقد تثمر اشد أنواع الكبر و توصل الى أبعد مراحلها اذا صادفت نفساً مرنة و جهلاً محفزاً.

يتكبر الانسان على أخيه الانسان لانه فقير فيجره ذلك الى التكبر على الله وقد يجره الى الجحود والكفر وهي المرحلة الاخيرة من الكبر، ويقول فيها الامام الصادق (ع) «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر»<sup>١</sup> والكبر هو الخلق النفساني الذي يتصف به المتكبر، والتكبر هو الاعمال التي تنشأ عن هذه الصفة النفسانية، و كما ان الكبر سبب لسقوط الفرد في الاخلاق فانه سبب لانحطاط الامة في الحضارة، لان المتكبر يجد نفسه فوق كل أحد، ويرى ان مصلحته الخاصة مقدمة على كل شيء، وهو يحقد على الغير اذا أنكر عليه ذلك. فاذا شاع التكبر في الامة نشأت الضغائن بين الافراد، و دبّ الخلاف بين الجنود، و بعدت الشقة بين القادة، وأصبحت الامة أما متعددة بتعدد المتكبرين من أبنائها، و تفرقت كلمتها الى غير اجتماع.

يغالط المتكبر اذا ادعى أنه يحترم القانون، لأنه يعتقد ان ارادته أسمى من جميع مواده و فصوله، و لعله يحترم النظام حين يكون وسيلة لحفظ حقوقه الخاصة، و لعله يرى ان واجب النظام ذلك لا غير.

والفضيلة التي تقابل الكبر هي التواضع، وهي ان يحترم للناس حقوقهم ويعرف لهم منازلهم ومراتبهم، و أن يحتفظ لنفسه بمنزلتها الخاصة، فلا يجحد فضيلة لفاضل، ولا يحتقر شرفاً لشريف، ولا يدعي لنفسه صفة كاذبة، فان في الحقيقة غنى عن الخيال، و ليس عليه وراء هذا ان يتنازل عن شيء من حقوقه لأحد من الناس.

من التواضع المدوح ان يتسامح الانسان في بعض الحقوق التي لا يضر فواتها بشرفه، و لكنه ليس يوجب. اما الحقوق الواجبة للنفس والتي

(١) الكافي الحديث ٧ باب الكبر.

يكون فوتها قادحاً في الشرف ونقصاً في المروعة فان التنازل عنها ذلة يجب على الانسان ان يتنزّه عنها، وهي الرذيلة الثانية التي تقابل التواضع من جانب التفريط .

(من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وان تسلم على من تلقى، وأن تترك المراء وان كنت محقاً، ولا تحب أن تحمد بالتقوى)<sup>١</sup> وهذا الحديث يعرض أمامنا نوعين من التواضع:

١- التواضع في السلوك والأعمال وهو علاج التكبر.

٢- التواضع في النفس وهو يقابل صفة الكبر فيها، وعلامة هذا التواضع أن لا يحب أن يحمد بالتقوى. قد يستعظم الانسان نفسه، أو يستعظم صفة من صفاتها، فيسمى معجباً، ويتطور العجب فيقيس المعجب نفسه بغيره، ويحكم لنفسه بالفضل ويطمئن الى هذا الحكم فيكون كبيراً، فالكبر تطور في العجب، وقد ينشأ الكبر أو التكبر من أسباب نفسية أخرى، ولكن العجب أهم مصادره وأعظم ينابيعه، والعلاج الصحيح لهذا الداء أن تستأصل البذرة، وأن تقتل الجرثومة وعلامة ذلك: (أن لا تحب أن تحمد بالتقوى).

## الصدق، والكذب

وصفان يقعان على القول، و يضافان الى القائل، وقد يتعديان الى غير القول من الاعمال والصفات، والباحث الخلقى يريد منها الخلقين النفسانيين الذين يصدر عنها ذلك السلوك .

الصدق والكذب صفتان للقائل أو للقول، ولكن الاعتياد عليهما يغرس في النفس ملكة الصدق أو الكذب، وهي التي يقصدها الخلقى في بحثه.

(١) الكافي الحديث ٦ باب التواضع.

وإذا اختلف علماء العربية في تعريف الصدق والكذب فلا ينبغي وقوع مثل هذا الاختلاف بين علماء الاخلاق لان غاية العالم الخلقى أن يصل الانسان الى الكمال، و الكمال في القول أن يطابق الحقيقة والاعتقاد معاً، و لأن الاعتدال الذي يبحث عنه علم الاخلاق هو خضوع الانسان في سلوكه للحكمة، والحكمة هي: (معرفة حقائق الاشياء على ماهي عليه) فالصدق الذي يبحث عنه الخلقى، والذي يعده من رؤوس الفضائل لابد له من مطابقة الواقع، ولا بد له من مطابقة الاعتقاد.

قد يعتقد الانسان بشيء وهو مخطىء في ذلك الاعتقاد، فاذا أخربما يوافق عقيدته هذه كان قوله صادقاً عند بعض علماء العربية، وقد يكون معذوراً عند الفقيه، لأنه لم يتعمد المخالفة والكذب، ولكنه ليس من الصدق الذي يعد في علم الاخلاق فضيلة.

وليس الصدق من فروع قوة معينة، فقد يضاف الى الشجاعة، وقد يكون من العفة، وقد ينتسب الى الحكمة، وقد يشترك في انتاجه أكثر من قوة واحدة، والكذب نظيره في ذلك.

الصدق فضيلة، ومن الوهن بالكاتب أن يدل على كون الصدق فضيلة، و اذا كان فضل الصدق مفتقراً الى الاثبات فأى شيء بعده يستغني عن الدليل، الصدق فضيلة وكفى، حكم لم يختلف في صحته عقل، ولم يخالف فيه نظام، أما الشرائع السماوية فان وجوب الصدق هو الحكم الاول من أحكام كل شريعة: (إن الله عزوجل لم يبعث نبيا الا بصدق الحديث، وأداء الامانة الى البر والفاجر)<sup>١</sup>.

والصدق أهم القواعد التي يقوم عليها بناء المجتمعات، و تنتظم بها وحدات الامم، واي بناء يبقى للمجتمع، و اية وحدة تبقى للامة اذا انهارت دعامة الصدق بين الافراد، وفقدت الثقة من كل قائل، و كيف يعامل

(١) الكافي الحديث ١ باب الصدق.

التاجر في تجارته، والطبيب في عيادته بغير الصدق، وكيف يوثق بعلم العالم وعدل الحاكم، وانصاف الراعي ووفاء الرعية، وكيف يتم كل شيء بغير الصدق.

وعلى هذا الأساس يمكننا ان نجعل الالتزام بالصدق دليلاً على رقي الامة، وان مقدار رقيها بمقدار التزام افرادها بالصدق في اعمالهم واقوالهم وانحطاطها بمقدار ما يفشو بينهم من الكذب، يستحيل على الامة أن تتقدم في حضارتها ومعارفها اذا كانت متأخرة في الاخلاق، واشد الاخلاق تأثيراً في ذلك هي الاخلاق العامة التي تؤلف بين الافراد وتربط بين الجماعات، والصدق من أهم هذه الاخلاق.

وللصدق أقسام عديدة، وكل واحد من هذه الاقسام فضيلة ويقابله الكذب في جميع ذلك:

### ١- الصدق في القول:

اللسان ترجمان النفس، وخطيب الجوارح وأمين الانسان على تبليغ آرائه وافكاره، واللسان هو السفير بين الفرد وبين الامة، وهو الصلة التي تربط بين المجتمعات، وتصل بين الامم، واللسان دليل شرف الانسان ورائد عقله ومروءته، ومن الجدير بهذه الجارحة العظيمة ان تعرف ما لها من الكرامة فتؤدي امانتها باخلاص ولا يحصل لها الاخلاص في الاداء إلا بالصدق.

يقول الامام (ع) «من صدق لسانه زكى عمله»<sup>١</sup> ويقول: «لا مروءة لكذوب»<sup>٢</sup> الكذب ملق في اللسان يستبيحه الجاهل لقضاء حاجة وبلوغ مقصد، والكذب يُلون في الحديث تسببه ضعة في النفس، وضعف في الارادة، فلا يمكنه ان يلتزم بالحق فيما يقول، لا مروءة لكذوب، وأي مروءة

(١) الحديث ٣ من المصدر السابق.

(٢) تحف العقول ص ٩٢.

للإنسان إذا أساء إلى شرف نفسه، و أي ثقة للغير به إذا خان أمانة نفسه، و حسب الكاذب جهلاً أن تكون حاجته أعز عليه من شرفه، و حسب ضعة أن يتعرض للعنة الله و لعنة القانون الأدبي .

أما الذي يكذب هازلاً فقد يكون أشد جهلاً و أكبر جريمة لأنه يهزأ بجرمات الله و حرمان الأخلاق، و الكاذب الجاد قد يتخفى بجرمته فلا يطلع عليها السامع ولا تسلب ثقته من النفوس، أما الهازل فهو مهتوك الحرمه لأنه متجاهر بالاثم و «المؤمن لا يخلق على الكذب ولا على الخيانة»<sup>١</sup> و سأله رجل ان يعلمه ما ينال به خير الدنيا والآخرة ولا يطيل عليه فقال له : «لا تكذب»<sup>٢</sup>.

## ٢- الصدق في العزيمة - ويقابله التردد :

و يسمى هذا النوع من الصدق قوة الإرادة، و قد سبق البحث عنها في فضيلة العدل، و سمعنا قول الامام الصادق (ع) في ذلك .

## ٣- الاخلاص : و هو الصدق في وجه العمل و يقابله الرياء .

لكل عمل من الأعمال غاية يقصدها الناس العقلاء حين يصدرون ذلك العمل فالذي يشرب الماء مثلاً يقصد بعمله رفع اذى العطش، و الذي يكتسب يهدف إلى تحصيل المال، و الذي يتعبد لربه يقصد التقرب منه، و الزلفى لديه، و المخلص في عمله هو الذي يطلب بالعمل غايته الصحيحة التي يطلبها العقلاء، و يمكن ان يكون لبعض الاعمال غايات متعددة فيكون الاتيان بالعمل لاحدى هذه الجهات اخلاصاً اذا كانت كل واحدة من الجهات تعد غاية صحيحة، و المرأى هو الذي يغير وجه العبادة فيجعلها ذريعة لتحصيل الجاه و يطلب بها المنزلة عند الناس فهو يعبد الناس بعبادة الله، و يجعل الدين سلماً لاهوائه و اغراضه، و قد قال الامام الصادق (ع) في تفسير

(١) تحف العقول ص ٩٠ .

(٢) تحف العقول ص ٨٨ .

قوله تعالى. ليلوكم ايكم احسن عملا: «ليس يعني اكثركم عملا، ولكن اصوبكم عملا، واما الاصابة خشية الله، و النية الصادقة والخشية، ثم قال الابقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد ان يحمذك عليه احد إلا الله، والنية افضل من العمل»<sup>١</sup> النية الصادقة هي الغاية الصحيحة التي يقصدها الانسان عند العمل، وهى التى حكم الامام بتفضيلها على العمل في آخر الحديث، والعمل الخالص في رأي الامام (ع) هو ما كان الله غايته الاولى والاخيرة، وعلامة هذا الاخلاص ان لا يريد ان يحمد على عمله من احد سوى الله.

و الاخلاص لا يقبل المزاحمة في الغاية حتى بعد اتمام العمل، فاذا احال الانسان وجه النية فقد احال وجه العبادة وغير صفة الاخلاص، و لذلك كان الابقاء على العمل حتى يخلص اشد من العمل، ويقول (ع): «كل رياء شرك، انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، و من عمل لله كان ثوابه على الله»<sup>٢</sup> ويقول: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله انما يطلب تزكية الناس، يشتهي ان يسمع به الناس فهذا الذي اشرك بعبادة ربه» ثم قال: «ما من عبداً خيراً فذهبت الايام ابدأ حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يشرراً فذهبت الايام ابدأ حتى يظهر الله له شرراً»<sup>٣</sup>.

المرائي مشرك لأنه يعبد أكثر من معبود واحد، و المرائي منافق لانه يظهر مالا يبطن و يلبس السيئة ثوب الحسنة، و المرائي ممقوت عند الله لانه يجعل الله ذريعة لجرم و وسيلة لاثم، وهو ممقوت عند الناس لانه يخادعهم بما لا يعلمون. ولا بد و أن يكشف الحجاب يوماً و يبرز المستور.

(١) الكافي الحديث ٤ باب الاخلاص.

(٢) الكافي الحديث ٣ باب الرياء.

(٣) الحديث ٤ من المصدر المتقدم.

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فانك عاري والمرائي كاذب حتى عند نفسه وان غالطها بالعلل ، ومثاها بالامل : « ما يصنع احدكم ان يظهر حسناً ويسر شيئاً أليس يرجع الى نفسه فيعلم انه ليس كذلك »<sup>١</sup>.

#### ٤- الصدق في العمل :

ويريدون به ان يكون ظاهر الانسان موافقاً لباطنه ، فلا يقول مالا يعمل ، ولا يعمل مالا يعتقد ، ولا يعتقد غير الحق فيكون للحق سره و جهره ، وللفضيلة قوله وعمله ، وهذا المعنى ارفع شأناً من الاخلاص المتقدم ، وفيه يقول الامام « ليس الايمان بالتحلي ولا بالتبني ولكن الايمان ما خلص في القلوب وصدقته الاعمال »<sup>٢</sup>. وهذا النوع من الاخلاص يشمل الصراحة ويقابل النفاق في القول والعمل . والنفاق يكون على اقسام :

(١) النفاق في العقيدة : فالمنافق في عقيدته هو الذي يظهر الايمان و يبطن الكفر .

(٢) النفاق في العمل ، وقد روى الامام الصادق (ع) عن جده النبي (ص) قوله في ذلك : «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»<sup>٣</sup>.

(٣) النفاق في الصداقة والمعاشرة. وقد قال الامام الصادق (ع) فيه : « ولا خير في صحبة من لم يرلك مثل الذي يرى لنفسه »<sup>٤</sup>.

#### ٥- الوفاء :

ليس ايسر على الانسان من أن يتخذ الصديق او يعد الوعد ، وليس

(١) الحديث ١١ من المصدر المتقدم .

(٢) تحف العقول ص ٩٢ .

(٣) الكافي الحديث ٦ باب صفة النفاق .

(٤) تحف العقول ص ٩٠ .

اعسر عليه من ان يفي بهذه الصداقة او ينجز ذلك الوعد مهما تقلبت الاحوال او تغيرت الحوادث .

كلنا نرغب ان يكثر اصدقائنا واصحابنا ، والابتسامة باب الحب والكلمة الطيبة مفتاح القلب ولكن القيام بشؤون الصداقة غير الرغبة فيها . و كلنا نود ان نعد غيرنا بالجميل ففي الوعد لذة وفي الشعور باحتياج الغير الى الانسان متعة . ولكن انجاز هذه العدة غير النطق بها .

وفاء الانسان برهان ثباته على المبدأ . ودليل ثقته بنفسه ؛ لان ضعيف الارادة ووضع النفس لا يمكنه ان يفي بشيء . والامام الصادق (ع) يقول في وفاء الصديق : « اذا اردت ان تعرف صحة ما عند اخيك فاغضبه فان ثبت لك على المودة فهو اخوك وإلا فلا »<sup>١</sup> ويقول في الوفاء بالوعد : « لا تعدن اخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه »<sup>٢</sup> ويقول : « عدة المؤمن اخاه نذرا لكفارة له فن اخلف فبخلف الله بدأ ولقته تعرض »<sup>٣</sup> يعد الانسان عدة فيرهن شرفه بهذا الوعد ويحس مروءته بهذا الميثاق ، فاذا اخلف بوعده فقد عرض شرفه للثلثم ومروءته للانتقاص ، وقد ينتحل الاعذار الكاذبة ليسد بها هذا النقص فيضم الى الجريمة جريمة . والوفاء باب عظيم من الاخلاق يكفل للانسان النجاح في اعماله والفوز في معاملاته و يكسبه الثقة في النفوس والثقة بالنفس ، ومن اجتمع له هذان الوصفان فقد جمع الدنيا الى الآخرة .

## ٦- الصدق في مقامات الدين :

لأهل الدين في طريقهم الى الله مراحل يجتازونها بالمجاهدة و يفوزون بعدها بالقرب والزلفى السالكون في هذه المراحل قليلون و الواصلون

(١) تحف العقول ص ٨٧ .

(٢) تحف العقول ص ٩٠ .

(٣) اصول الكافي الحديث ١١ باب خلف الوعد .



الى الغاية بعض هذا القليل ، والسالك يصل الى غايته حين يعين السبيل و يجتهد في المسير. ولكن قد يخطيء الساعي في السعي وقد يضل السالك عن الطريق فيبعد عن الغاية من حيث انه يتوهم القرب. ويضل من حيث انه يعتقد الهدى وقد قال الامام الصادق (ع): «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق فلا تزیده سرعة السير إلا بعداً»<sup>١</sup>. وللطريق الذي يوصل الى هذه الغاية علامات وللسعي فيه حدود والانسان الصادق هو الذي عرف السبيل بعلاماته ثم اجتهد في السعي بحدوده. وغيره حاطب ليل وخابط عشواء.

وللامام الصادق (ع) في هذا الصدق كلمات كثيرة فهو يقول في مرحلة الخوف والرجاء: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً. ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»<sup>٢</sup>. ويقول في مرحلة الحب: «الحب افضل من الخوف»<sup>٣</sup> ويقول: «من حب الرجل دينه حبه اخوانه»<sup>٤</sup> ويقول في مرحلة اليقين: «ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»<sup>٥</sup> واقوال الامام الصادق (ع) في هذا الموضوع كثيرة نكل البحث عنها لمن يكتب في عرفان الامام الصادق (ع).

### الحب والصدقة

نرى الشيء الجميل او الشيء الجيد فنجد في انفسنا صدى انفعالياً لذلك الجمال او لتلك الجودة، وهذا الشعور النفسي الذي نجاهه هو الاستحسان، وقد نحس في انفسنا بعد هذا الشعور انجذاباً رقيقاً او عنيفاً الى

(١) تحف العقول ص ٨٨.

(٢) الكافي الحديث ١١ باب الخوف والرجاء.

(٣) تحف العقول ص ٨٧.

(٤) الخصال للصدوق ص ٥.

(٥) الكافي الحديث ٣ باب فضل اليقين.

ذلك الشيء. وهذا الانجذاب هو المحبة، فالاستحسان انفعال النفس عند شعورها بالجمال او الجودة. والمحبة هي رد ذلك الانفعال، والاستحسان دعوة الجمال للنفس اذا شعرت به. والمحبة استجابة النفس لتلك الدعوة.

والمحبة في اولى درجاتها ميل الى الشيء المرغوب، اذا كانت الرغبة فيه لا تكلفنا ان نتحمل المشاق في تحصيله، فاذا اشتدت الرغبة اليه، و كلفتنا ان نتحمل بعض المشاق سميت «وداً» واذا بلغت اكثر من ذلك الحد سميت «حباً» وهو اسمى درجات هذا الاحساس. والعرفانيون يتجاوزون في المحبة هذا الحد فيجعلون لها درجات اخرى متفاضلة، ولكل واحدة من هذه الدرجات مراتب متعددة.

يقول الفيلسوف: الحب ميل طبيعي الى المحبوب الملائم، ويقول الاجتماعي: الحب صلة نفسانية متبادلة بين اليقين ورابطة متعادلة بين قلبين، ويقول العارف: الحب قوة خفية تصير المعشوق جزءاً من العاشق. و قد تحيلها شيئاً واحداً لا يقبل التجزئة. ويقول الاديب: الحب اشراقه الروح على الروح ومصافحة القلب مع القلب.

اما الامام الصادق (ع) فانه يسميه الايمان حين يقول: «وهل الايمان إلا الحب»! وقد علمنا ان الايمان الصحيح عند الامام (ع) هو معنى الانسانية الكاملة. والحديث على و جازته يدلنا على منزلة عظيمة للحب في رأي الامام الصادق (ع) ولكن علينا ان نعرف هذا الحب القدسي الذي يفسر الامام به الايمان.

من الاحكام التي لا تقبل التشكيك ان دوام كل عمل أو صفة يكون بمقدار ما لغاية ذلك الشيء من الدوام. والاهتمام به بمقدار ما لغايته من الاهمية. فالذي يطلب رجلاً لخدمة ينتهي طلبه اذا حصل منه على تلك الحاجة. والذي يقرأ كتاباً ليفهم معناه تنتهي قراءته اذا حصل منه على

الغاية، والحب احد هذه الاشياء التي تطلب لغاياتها، وتدوم بدوامها، و تكون شريفة او وضيعة بشرف الغاية او ضعتها. فالذي يحب احداً لماله ينفد حبه اذا نفذ المال، والذي يحب شخصا لغاية غير شريفة ينتهي حبه اذا حرم منها وقد ينقلب الحب بغضا.

والاسلام دين المحبة الصادقة، والاخوة الدائمة. لا يعجبه هذا اللون المشوه من الحب، وبالاحرى هذا التدنيس لطهارة الحب. حب الشهوة الوضيعة والغايات السافلة.

الحب شريف لانه علاقة بين ارواح فيجب ان يكون شريف الخاتمة، والشريعة الاسلامية مثالية في جميع احكامها فيجب ان تكون مثالية في حبه. على ان هذا اللون محدود الغاية فلا يلتئم مع الالفة الدائمة التي يدعو اليها دين الاسلام.

الحب هو الصلة الأولى بين العبد وبين ربه، وهو العلاقة المتينة بين الانسان وبين دينه. فيلزم أن تكون الصلة بين المسلمين ظلماً لذلك الحب و قبساً من ذلك النور فان «من حب الرجل دينه حبه اخاه»<sup>١</sup>. كما يقول الامام الصادق عليه السلام و«من حب الشيء حب جميع آثاره» كما تقول الفلاسفة. وليس الحب شيئاً يكال جزافاً بالمكاييل، ولا ينشأ مصادفة من غير سبب، يحب الانسان ربه لانه المنعم الذي اوجده بعد العدم. ثم كمله بعد النقص وهده من الضلالة. ولانه الكامل المطلق الذي يجب ان يحب لانه كامل. و يحب الانسان دينه لانه الطريق الذي يصل به الى السعادة و الوسيلة التي تضمن له الفوز بالخير الاعلى. و يحب الانسان أباه لانه سبب وجوده و هو الكافل لتربيته. و يحب المسلم أخاه المسلم لانه عديله في الدين و شريكه في الكمال، و يحب الانسان اخاه الانسان لانه مثيله في الحقوق، و نظيره في استحقاق السعادة، هكذا ينظر الدين الاسلامي الى الحب، و

هكذا يجب ان يكون، «و هل الايمان إلا الحب» والعلاقة بين المتحابين اذا اقيمت على هذا الاساس تحطمت دونها كل غاية وسهلت في سبيلها كل وسيلة، وكانت متعادلة بينهما فيحس احدهما لصاحبه بما يحس به الآخر لانه صلة بين نفسين وبالاخرى بين عقليين. اما حب الشهوة فلا تكون له هذه الخاصة لانه صلة بين غريزة وجسد والجسد لا يحس بما يحس به القلب. على ان حب الصديق لكماله يكون اكبر لذة واكثر اتصالا وبقاءً، لانها لذة عقلية. والقوه العقلية اكبر لذة لانها اقوى ادراكا واسمى غاية. و يدلنا على هذا انا نجد القلوب مجتمعة على حب الكمال ابنا وجد وعلى تعظيم الكامل اينما حل وان فصلت بيننا وبينه عشرات القرون، فالذي يجب «عنتره» لشجاعته او يجب «حاتما» لجوده لم يحبها لغرض يرجع الى قوة الغضب او الى قوة الشهوة، ولكنه يحبها لانها متصفان بصفتين من صفات الكمال، وهو يلتذ بهذا الحب كلما خطرت هذه الناحية في قلبه.

والصدقة مادة من مواد الاخلاق، والصديق صورة ترسم للانسان مستقبله وتحدد له سعادته و كماله، وقد قال الشاعر العربي:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

افكل قرين بالمقارن يقتدي  
ينشأ الانسان وتنشأ معه غريزة التأسي وحب المحاكاة، وهو يعلل بها كثيراً من افعاله، ويبني عليها كثيراً من عاداته. يرتكب الانسان الجريمة لان نظيره قد ارتكب مثلها او اشد منها. ويعمل الاحسان لان امثاله يعملون ذلك. حتى الطفل فانه يصدر كثيراً من اعماله لمجرد الاقتداء وحب المحاكاة و كم لهذه الغريزة من مظهر، و كم لها من نتيجة حسنة اوقبيحة، وبديهي ان هذه الغريزة اذا قارنت الحب والصدقة كانت اشد تأثيراً في الانسان.

وقد اثبتت التجربة ان المجاورة والاتصال يؤثران حتى في

الجمادات .

كالريح آخذة مما تمر به ننتأ من النتن أو طيباً من الطيب  
فن الجدير بالانسان ان يختار موضعاً لصداقته ، لانه يختار مادة  
لأخلاقه ويضع رسماً لمستقبله وحداً لسعادته . من حقوق الحب  
على الانسان ان يختار له موضعاً ، ومن حقوق النفس ان يختار  
لها مهذباً . وقد قال الامام الصادق (ع) : « من لم يجتنب مصادقة الاحمق  
اوشك ان يتخلق باخلاقه »<sup>١</sup> . وقال : « لا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره »<sup>٢</sup>  
وللامام الصادق (ع) كلمات تتضمن قواعد مهمة في الصداقة نذكرها  
من غير تعليق :

« لا خير في صحبة من لم يترك مثل الذي يرى لنفسه » ، « اياك و  
مخالطة السفلة فان السفلة لا تؤدي الى خير » ، « احب الاخوان على قدر  
التقوى » ، « لا تعتد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات » ، « عليك باخوان  
الصدق فانهم عدة عند الرخاء ، وجنة عند البلاء » ، « صحبة عشرين سنة  
قربانة » ، « ضع امر اخيك على احسنه ، ولا تطلبن بكلمة خرجت من اخيك  
محملاً » ، « الصفح الجميل ان لا تعاتب على الذنب ، والصبر الجميل الذي  
ليس فيه شكوى » ، « لا تذهب الحشمة بينك وبين اخيك وابق منها ، فان  
ذهاب الحشمة ذهاب الحياء وبقاء الحشمة بقاء المودة » ، « احب اخواني  
الي من اهدى الي عيوني »<sup>٣</sup> ، « اذا احببت رجلاً فاخبره بذلك فانه اثبت  
للمودة بينكما »<sup>٤</sup> « انظر قلبك فاذا انكر صاحبك فان احدكما قد احدث »<sup>٥</sup> .

(١) امالي الصدوق ص ١٦٣ .

(٢) مصدر هذه الكلمات تحف العقول بين ص ٨٧ و٩٣ .

(٣) الكافي الحديث ٥ باب من تجب مصادقته .

(٤) الكافي الحديث ٣ باب اخبار الرجل اخاه بحبه .

(٥) الكافي الحديث الاول من نوادر باب المعاشرة .



(٧)

# ميزان الخلق الصحيح

«من سرته حسنته وسأته سيئته فهو مؤمن»

الامام الصادق (ع)

(۷)

مجلس شورای اسلامی

کتابخانه مجلس شورای اسلامی  
تاسیس ۱۳۰۲ خورشیدی



(٧)

### ميزان الخلق الصحيح

غاية علم الاخلاق أن يوصل الانسان الى الكمال الاعلى الذي يطلبه بأعماله وصفاته، ولهذا فان بعض الخلقين يسرف فيقول: «علم الاخلاق أشرف العلوم جميعاً لانه يوصل أشرف مخلوق الى أشرف غاية». والحكم الذي لا يقبل الشك فيه أن علم الاخلاق من أشرف العلوم ومن أرقاها.

علم الاخلاق رائد الانسان الى السعادة ودليله على الخير الاعلى، و هو مرشد النفوس الى الفاضل من الصفات والفاضل من الاعمال. ومن الجور الذميمة ان تتقرب منه اكثر من هذا. لعلم الاخلاق أسوة بأخواته من العلوم التي تطلب لغاياتها. عليه ان يمهّد السبيل الى الغاية ويوضح الطريق الى المقصد. وعلى العالم الخلق ان يكون طبيباً ماهراً يعين الداء بدقة و يصف الدواء بمهارة وليس عليه بعد هذا ان يضل الضال أو يصل الواصل. فان حصول النتيجة شروطاً اخرى وراء معرفة المقدمات، قد يخطيء الانسان الهدف الذي يريده لانه أساء التطبيق، او لم يحسن استعمال العلاج،

والمحاسب عن هذا التقصير هو الانسان نفسه، لا علم الاخلاق، وقد اوضح الامام هذه الناحية بقوله: «ان نفسك رهينة بعملك»<sup>١</sup>، و قوله: «قد جعلت طبيب نفسك، وبيّن لك الداء وعرفت آية الصحة و دلت على الدواء فانظر كيف قيامك على نفسك»<sup>٢</sup> علم الاخلاق هو الوسيلة التي تكشف للانسان الداء، وهو الذريعة التي يعرف بها آية الصحة، والمرشد الذي يدلّه على الدواء، ثم يوكل استعماله اليه فلينظر كيف قيامه على نفسه. اما قول الامام في هذا الحديث: «جعلت طبيب نفسك» فانه يجري على استعارة جميلة و كثيراً ما كررها الخلقون في كلماتهم. وبين الطب وعلم الاخلاق نواح كثيرة من وجوه الشبه.

للانسان صورة ظاهرة يفحصها الطبيب من حيث الصحة والمرض، وله صورة باطنة يبحث عنها الخلق من حيث التوازن والانحراف، ولكل من هاتين الصورتين طوارئ تخرجها عن الاستواء والتوازن في صفات الجسم الذي يطلبه الطبيب لانه صحة؛ له نظير في النفس يطلبه الخلق لانه كمال والانحراف الذي يدافعه الطبيب عن البدن لانه مرض جسمي. يحارب الخلق مثله في النفس لانه مرض روحي، و اذا كان حصول الكمال النفسي سعادة للانسان كما يقول الخلقون، فان حصول الصحة سعادة للبدن كما يقول اطباء، و كثيراً ما سرت امراض البدن الى النفس وتعدت امراض النفس الى البدن والمتأخرون من الخلقين والنفسيين يقولون: «العقل الصحيح في الجسم الصحيح».

الانسان هو طبيب نفسه وهو المسؤول عن تركيبها وتهذيب اخلاقها ولكن على علم الاخلاق ان يدلّه على آية (الصحة) وأن ينصب له ميزانا عادلا يميز به بين صحيح الملكات وفسادها، وخير الاعمال وشرها،

(١) الكافي الحديث ٨ من نوادر باب الاستدراج.

(٢) الحديث ٦ من المصدر المتقدم.

ليألف الحسن منها و يجتنب القبيح ، وقد علمنا في الفصول السابقة ما يتكفل لنا بذلك ، فقد عرفنا أن فضائل الملكات اوساط و رذائلها انحرافات و اطراف ، و عرفنا أن المقياس الذي تعلم به هذه الاوساط هو الشريعة الالهية المعصومة ، و بهذا الميزان نستطيع أن نعرف الخلق الصحيح فنتوجه اليه في سلوكنا ، و أن نحكم على العمل بأنه خير و انه صواب اذا وافق الخلق الكريم . و لكننا قد نخطئ الهدف المقصود و ان كنا قد علمنا جميع ذلك ، و طبقناه على اعمالنا و عاداتنا .

قد نعين الاوساط التي حكمنا بانها فضائل ، و نغز الاعمال التي تختص بها هذه الاوساط ثم نسعى الى تحقيقها حتى يصبح الخلق صفة من صفاتنا ، و نحن مع هذا الجهد كله لم نتصف بالفضيلة لاننا قد اضعنا الغاية التي من أجلها حببت هذه الفضيلة .

ليست الاوساط بمطلقها فضائل ، فقد تطلب هذه الاوساط لغير غاياتها ، و الخلق الصحيح ما طلبت به الغاية الصحيحة . و القاعدة التي يذكرها الخلقون لذلك : أن يتصف الانسان بالفضيلة لانها فضيلة . و يجتنب القبيح لانه قبيح . اما الامام الصادق (ع) فيقول في ذلك : « من سرتة حسنته ، و ساءتة سيئته فهو مؤمن »<sup>١</sup> الحسنه هي العمل الخير اذا قصد به الوجه الصحيح ، و السيئة عمل الشر ، و عمل الخير ايضا حين يقصد به غاية غير صحيحة . فاذا سر الانسان بحسنته و استاء من سيئته كان هذا دليلا على ترك الخلق الصحيح في نفسه لان السرور هو التذاذ الانسان حين يرضي رغبة من رغباته . و المساءة هي التألم الذي يحصل عند انقمار الرغبة . و هذا الذي يذكره الخلقون هنا لا ينافي ما تقدم في تحديد معنى الفضيلة و انما هو شرح و ايضاح .

الفضيلة أن تعتدل الملكة النفسية فلا تشد ولا تنحرف . و اذا مالت

(١) اصول الكافي الحديث ٦ باب المؤمن و علاماته .

بها الاهواء و استخدمتها الغايات فقد شذت و انحرفت. و الفضيلة أن تسير النفس في عملها و في صفاتها على هدى العقل و ارشاده، فاذا قصدت بالعمل أو بالصفة غاية و ضيعة فقد بعدت عن حكمة العقل و تعامت عن ارشاده. و الفضيلة أن يتوسط الانسان في ملكاته، و أن يتسامى في غاياته، أما هذا الذي تحدثنا عنه فهو باطل يشبه الحق، و ضلال يشبه الهدى، و سيئة تلبس ثوب الحسنة.

# أصول العلاج عند الخلقين

«اقصر نفسك عما يضرها قبل أن»  
«تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسعى»  
«في طلب معيشتك فان نفسك رهينة»  
«بعملك.»

الموسم القاموس  
بمطبعة المطبعة

الموسم القاموس  
بمطبعة المطبعة  
بمطبعة المطبعة  
بمطبعة المطبعة

بمطبعة المطبعة

(٨)

## أصول العلاج عند الخلقين

تحدثنا عن العلاقة المتينة بين علم الطب وعلم الاخلاق، وعلّمنا كيف يكون الاتصال وثيقاً بين العلمين، وكيف يشبه الطبيب بالخلقي والخلقي بالطبيب، وليس الأمر بين العلمين مقصوراً على المشابهة فقط، فان بين العلمين اتصالاً هو اكثر من المشابهة، ورابطة هي أشد من التماثل، على أن بين العلمين فروقا واضحة هي الفروق التي تكون بين علم وعلم آخر، و من هذه الفروق التي نلاحظها بين العلمين أن الادواء التي يدافعها الطبيب عن الجسد، والتي يمانعها الخلقي عن النفس كل منها انحراف وشدوذ و تخلف عن كمال محبوب، و لكننا نجد ان الادواء التي تحدث في الجسد تكون مبعوضة للانسان، ولا يمكن أن تكون مرغوبة له إلا في احوال استثنائية لا يصح القياس عليها، و نجد ادواء النفس على العكس من ذلك مرضية للنفس و محبوبة لها عند اكثر الناس .

والسر في هذا الحب العجيب ان هذه الادواء تكفل للنفس بعض مشتبهياتها وتحقق لها بعض ميولها ورغباتها، والنفس تألفها لهذه اللذات الزائفة، وإن كانت ادواء فاتكة وسموماً قاتلة، وقد يبلغ الأمر ببعض النفوس الوضيعة أن تنفر من الخلق الكريم لأنه يمنعها عن تحصيل هذه اللذات.

ادواء الجسد في الاكثر تصحب آلاما محسوسة والانسان يمجتها لانه يحس بالآلامها. اما ادواء النفس فلا تكون كذلك لانها تسبب آلاما معنوية و انحطاطاً كمالياً، وقصير النظر لا يعبأ بهذا النقص، ولا يعتني بهذا الالم، لانه مجهل ما يسميه الخاصة كمالاً او رقياً معنوياً.

(١) و اذن فأول علاج يصفه علم الاخلاق لهذه الادواء هو العلم لانه يرفع النفس من هذه الضعة، وينقذها من هذا الانحطاط، وهو الحاسة الدقيقة التي يدرك بها الانسان لذة الكمال وألم الشقاء، وقد سمعنا احاديث الامام الصادق (ع) في العلم.

(٢) للباحث الخلقى غايتان متساويتان في الاهمية: (١) تهذيب الملكات السافلة و احالتها الى اخلاق صحيحة. (٢) احتفاظ الانسان باخلاقه الصحيحة بعد التهذيب. فالاعتدال الخلقى جهاد في جميع ادواره، و هو جهاد لانه خروج على غريزة و تمرد على قوة، و هو جهاد لانه ارغام ارادة و قسر عادة، و هو جهاد لانه حمل للنفس على ما تكره، و صرف لها عما تحب، و هو جهاد لان الفضائل اوساط، و معرفة هذه الاوساط تستدعي حزمًا و الاقامة عليها تستدعي عناءاً، و هو قبل هذا كله جهاد لانه بحث عن عيوب النفس المحبوبة، و الحب كما في المثل المشهور: يعمي و يصم. و اذا كانت للنفس رغبات و اهواء تراحم الخلق الصحيح في ابتداء تكوينه، فان لها نظائر من هذه الرغبات تراحم الخلق الصحيح في اوقاته الاخرى و النفس من اجل هذه الرغبات المتزاحمة في جهاد متواصل.



و معنى هذا ان العلاج الخلقى في جميع ادواره يعتمد على الصبر والثبات، فبالصبر تغرس الفضيلة في النفس، والصبر هو الذي يتعادها لتنمو وينمىها والصبر هو العدة التي يتدرع الانسان بها امام الاخطار، وهو الخلق الاول الذي يجب تهذيبه ليكون عوناً على تهذيب غيره، وهذا هو معنى قول الامام الصادق (ع): «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد كذلك اذا ذهب الصبر ذهب الايمان»<sup>١</sup> وهو معنى قوله ايضاً «رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله فيما احب العبد او كره»<sup>٢</sup>.

الصبر وقوف النفس امام الشدائد، وثباتها عند هجوم النوازل فهو فرع من فروع الشجاعة، والشدائد التي تثبت لها النفس قد تكون من الامور الخارجة عن النفس كصروف الدهر وآلام الحياة، وقد تكون من الامور المتعلقة بالنفس كالآلام التي تحصل من مكافحة طغيان الشهوة وجموع الغضب، والثبات عند جميع هذه الآلام شجاعة.

الصبر على جهاد قوة الشهوة شجاعة لا عفة، ولكن ثمرة هذا الجهاد هي العفة، والصبر على كفاح قوة الغضب شجاعة و ثمرة هذا الكفاح شجاعة اخرى.

في العلاج الخلقى مصاعب، وهو جهاد مستمر، ولكن هذه المصاعب لاتحد من قدرة الانسان شيئاً فالشخص حين يصدر العمل قادر على تركه، وهو حين يتركه مختار في فعله.

في وسع الانسان ان يفكر في غايات اعماله فيحترز عن العمل القبيح، واخيراً عن الخلق الذميم. في وسعه ان يفكر في غاية العمل قبل اصداره، ثم هو في سعة من الفعل او الترك، لأن له ارادة واختياراً. و اذا استطاع ان يخالف الملكة في المرة الاولى كانت مخالفتها في المرة

(١) الكافي الحديث ٢ باب الصبر.

(٢) الكافي الحديث ١ باب الرضا.

الثانية عليه اسهل، وهى في المرة الثالثة اخف مؤونة واكثر سهولة. و هكذا تأخذ الشدة بالضعف وتعود الملكة الثابتة حالة زائلة، ويصبح الخلق السيء اثرأ بعد عين.

وليحذر ان تغلبه العادة الاولى قبل ان يكمل التمرين على مخالفتها، فانها اذا غلبته مرة افسدت عليه كثيراً من عمله واحتاج الى كفاح جديد، والامام الصادق (ع) يشير الى هذا الطريق من المجاهدة بقوله «قف عند كل امر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل ان تقع فيه فتندم»<sup>١</sup> وقوله: «اياك ومرتقى جبل سهل اذا كان المنحدر وعرأ»<sup>٢</sup>.

(٣) في وسع الانسان الحازم ان يقف من نفسه موقف المحاسب الشحيح، فيستعرض صفاتها بالنقد والتمحيص، وسيوقفه الفحص على مواضع الخلل من ملكاته، ومن السهل عليه بعد هذا ان يوجد في نفسه شوقا الى الفضيلة التي تباين ذلك الخلق السيء الذي عرفه من نفسه، فاذا اوجد في نفسه هذا الشوق فقد تم له كل شيء

اما معرفة عيوب النفس فسندكر لها طرقا عديدة بعد هذا، واما الشوق الى الفضيلة فسيبيله الفكر.

ليحدث الانسان نفسه بمحاسن تلك الفضيلة، وما تعقبه من آثار طيبة، وعاقبة حميدة وما يناله اصحابها من مكانة سامية وشأن كبير، ليحدث نفسه بذلك، وليثق ان الشوق يحصل له قطعاً، لأن النفس تحب الكمال وتطمح الى الارتقاء، ومن الخير له ان يطيل التفكير بذلك، لتثبت الرغبة ويتأكد الميل.

و اذا تم للانسان النجاح في هاتين المرحلتين فليجتهد بعد هذا في الاعمال التي توافق الفضيلة التي اشتاق اليها، وكلما تكرر العمل

(١) تحف العقول ص ٧٤.

(٢) تحف العقول ص ٩٠.

ثبتت العادة الجديدة، وانهار بناء الخلق القديم.

وقد قال الامام الصادق (ع) في المرحلة الاولى من هذا العلاج: «أنفع الاشياء للمرء سبقه الى عيب نفسه»<sup>١</sup> وقال في المرحلة الثانية منه: «التفكير يدعو الى البر والعمل به»<sup>٢</sup> وقال في باب الزهد: «وانما ارادوا بالزهد الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»<sup>٣</sup> والأئمة من اهل البيت (ع) كثيراً ما يعتمدون هذا الطريق في تهذيب الاخلاق، وقد قدمنا للقارئ نموذجاً صغيراً من كلمات الامام الصادق في ذلك.

(٤) ذكر علماء الاخلاق لمعرفة الانسان عيوب نفسه طرقاً متعددة

نشير الى بعضها فيما يأتي :-

(أ) الخلقاء والأصحاب:

يحاول الانسان أن يرى صورته الظاهرية فيمتنع عليه أن يراها بغير المرأة، ويحاول ان يطلع على عيوب نفسه فيتعذر عليه ذلك بغير الصديق، صديقك غيرك فلا يصعب عليه ان يطلع على نقائصك، وقد جعله الحب الصحيح كالجزء منك فهو لا يخفي عليك شيئاً تكرهه من نفسك، «ولا خير في صحبة من لم يركل مثل الذي يرى لنفسه»<sup>٤</sup> ولذلك شرطوا أن يكون الصديق من اهل الامانة والدين، وقد سمعنا قول الامام الصادق (ع): «أحب اخواني الي من اهدى إلي عيوني»<sup>٥</sup>، وهو يقول ايضاً: «من رأى اخاه على امر يكرهه فلم يردده عنه وهو يقدر عليه فقد خانته»<sup>٦</sup>.

(ب) اجتنب ما تعدده قبيحا من غيرك :

(١) تحف العقول ص ٨٩.

(٢) الوسائل الحديث ٥ باب استحباب التفكير من كتاب الجهاد.

(٣) الكافي الحديث ٥ باب الزهد.

(٤) تحف العقول ص ٩٠.

(٥) الكافي الحديث ٥ باب من تجب مصادقته.

(٦) امالي الصدوق ص ١٦٢.

تنظر الى الناس الآخرين فترى عيوباً كثيرة تظهر في أعمالهم و اقوالهم ، فاذا أردت اصلاح نفسك فاجتهد أن لا تعمل نظير تلك الاعمال ولا تفكر في وجود تلك النقائص فيك ، فان النفس تنكره اذا كان خفياً ، و تعتذر عن ارتكابه اذا كان ظاهراً ، فتضيع من منك الفرصة ، و تذهب عليك الوقت .

(ج) استفد من لسان عدوك ما خفي على عين صديقك .

قد يسترحب بعض نقائصك على الصديق ، و قد يتجاهل بعض عيوبك حذراً من اساءتك ، و لكن العدو لا تخفي عليه نقائصك لانه يراعيك بعين ساهرة ، و هو لا يحتشي من ان يسيىء اليك ، فاجتنب عما ينسب اليك من الصفات . و الافعال و لا يضرك ان يكون كاذباً اذا برأت نفسك من العيوب .

(د) اذا اتهمت نفسك بخلق ذميم و أردت موقع هذه التهمة من الصحة فحاول ان توجد عملاً يخالف ذلك الخلق ، فاذا صعب عليك العمل فاعلم ان ذلك الخلق من صفاتك .

(هـ) تستطيع النفس ان تخفي نقائصها على الانسان ، و لكنها لا تستطيع ان تخفي عليه ميولها و اهواءها ، و هذا الهوى أثر لازم للخلق السيسىء فاذا خفيت عليك نقائصك فاجتنب اقرب الامرين الى هواك ، و يريدون من الامرين الفعل و الترك .

### ٥- الخوف و الرجاء

الخوف انفعال نفساني يحصل للانسان او للحيوان حين يتوقع صدور أمر يكرهه أو فوات شيء يحبه، وهو احدى الغرائز التي تولد معه و تنشأ و تصحبه في جميع احواله ، و كم جلبت له هذه الغريزة من خيرات ، و كم جنت عليه من شروره و الرجاء هو انتظار النفس حصول امر ترغب فيه ، و موضع الخوف و الرجاء في الاكثر هو الشيء اذا كان مشكوك الوقوع . و للانسان بين هاتين الملكتين شؤون و اطوار ، فقد يشتد به الخوف حتى يكون

يأساً، وقد يفرط به الرجاء حتى يكسبه تسامحاً واهمالاً وقد يعتدلان فيكونان مزيجاً خلقياً يبعث الى العدل ويرشد الى الخير، وقد قال الامام الصادق (ع) في ذلك: «أرج الله رجاءاً لا يجزئك على معاصيه، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»<sup>١</sup> وقال: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاراجياً، ولا يكون خائفاراجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»<sup>٢</sup>.

الخوف والرجاء صفتان نفسانيتان ولكنهما لا يثمران الخير حتى يكون لهما مظهر في السلوك وتأثير في العمل بهذا.

الخوف العملي اذا اشتد يسمى عند العلماء الخلقين ورعاً. واذا اشتد الورع يسمى تقوى: «وان قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى»<sup>٣</sup>.

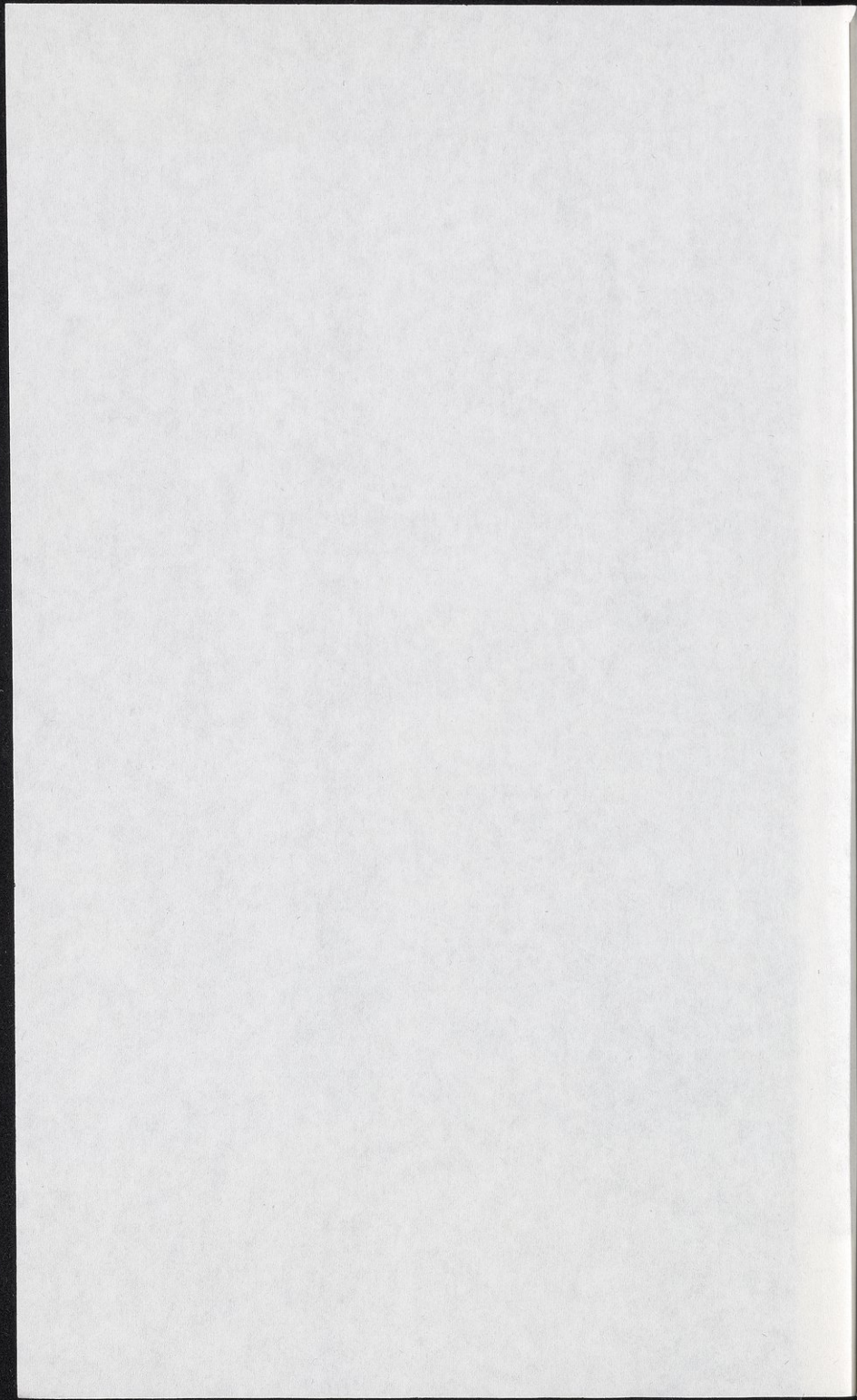
(١) امالي الصدوق ص ١٠.

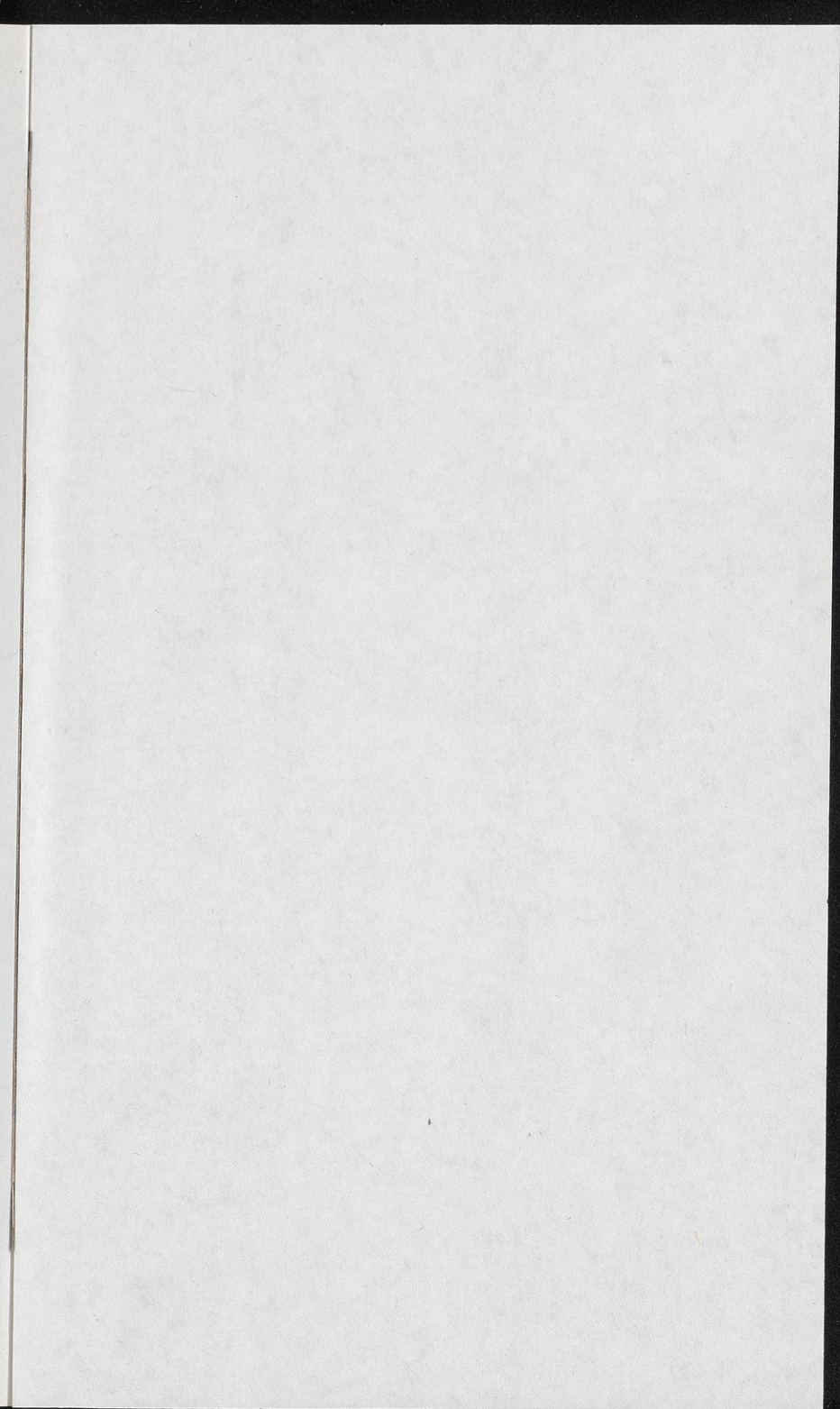
(٢) الكافي الحديث ١١ باب الخوف والرجاء.

(٣) الكافي الحديث ٧ باب الطاعة والتقوى.

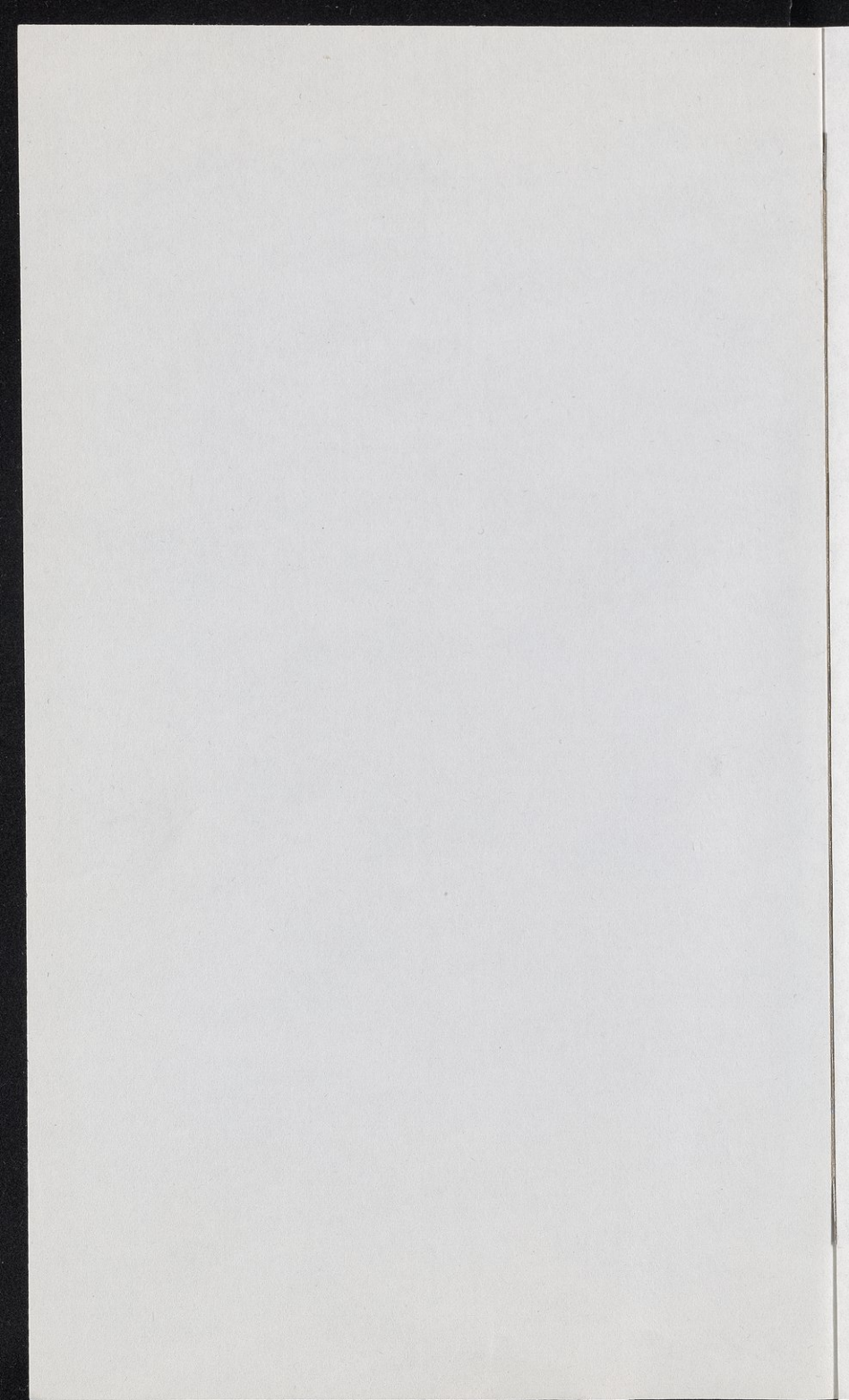
## المصادر

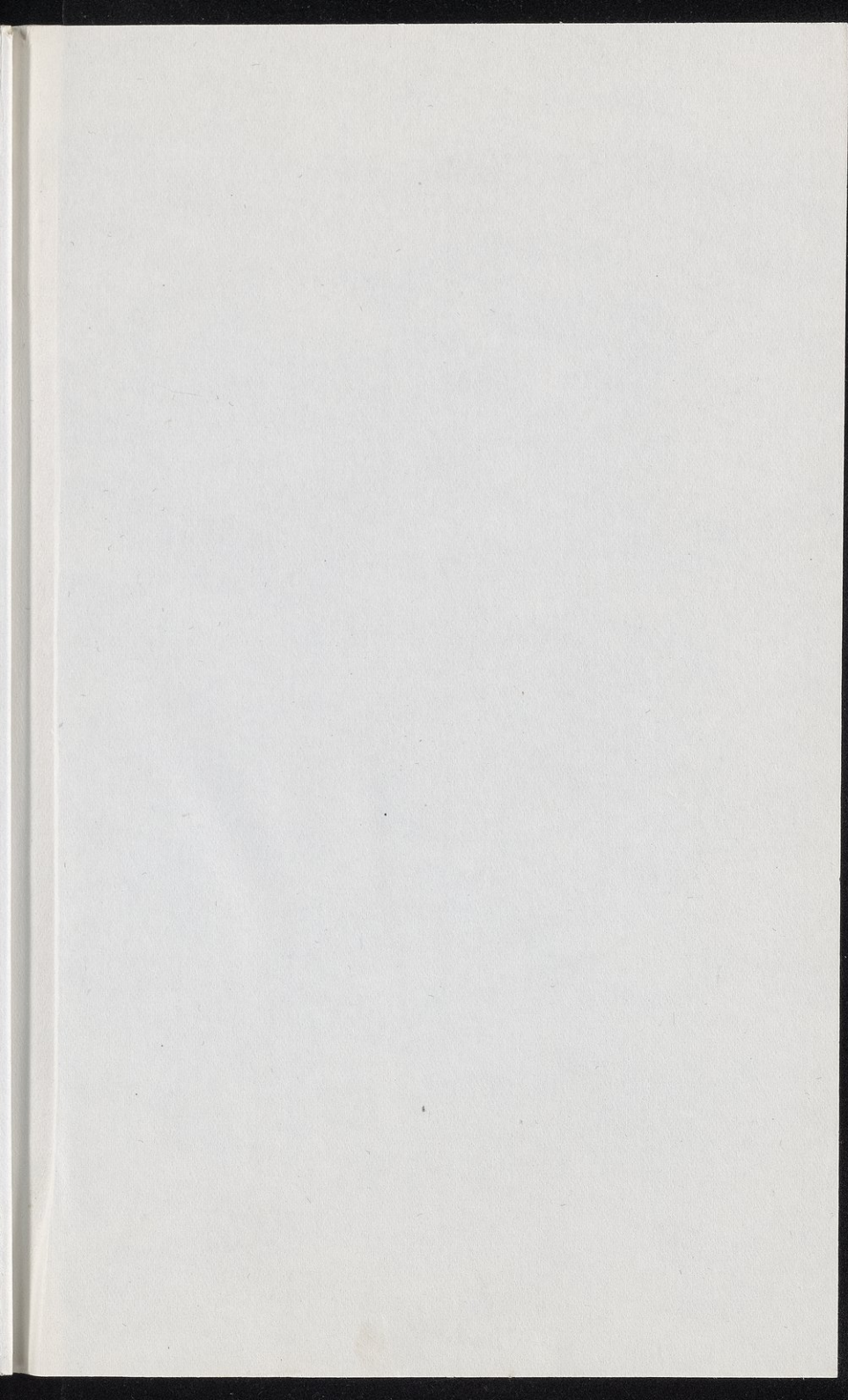
- الكافي لثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني ، وقد اعتمدنا في ضبط احاديثه على النسخة المطبوعة في هامش كتاب مرآة العقول للمجلسي .
- وسائل الشيعة للحر العاملي . وقد اعتمدنا في ضبط احاديثه على النسخة المعروفة بعين الدولة .
- أماي الشيخ الصدوق .
- الخصال له ايضاً .
- علل الشرائع له ايضاً .
- جامع السعادات للنراقي طبع ايران .
- الاحتجاج للطبرسي طبع ايران .
- تحف العقول للحسن بن ابي شعبة .
- مستدرك الوسائل . للميرزا حسين المحدث النوري .
- الجزء الخامس عشر من كتاب بحار الانوار للمجلسي .
- علم الاخلاق « نيقولا ماخوس » تعريب الاستاذ احمد لطفي السيد بك
- الاخلاق . للاستاذ أحمد أمين .
- الخلق الكامل . لمحمد أحمد جاد المولى بك .

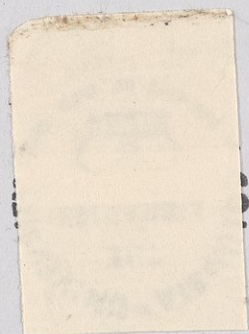












COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU01961268

السعر: ١٠٠ ريال